

حسن التعليل
.دراسة بلاغية تاريخية فنية.

دكتور
أشرف عبد القادر محمد عبد القادر
مدرس البلاغة في كلية البنات الإسلامية بأسويط

حسن التعليل - دراسة بلاغية تاريخية فنية

أشرف عبد القادر محمد عبد القادر

قسم البلاغة في كلية البنات الإسلامية بأسبوط

dr.ashbm@gmail.com

ملخص :

يعد حسن التعليل وسيلة من وسائل التفنن في القول، وطريقاً من طرق الإقناع البلاغي؛ لأنه يعمل على إيقاظ خيال القارئ، وإثارة وجدانه، وإدخال السرور عليه من خلال تقديم علة خيالية طريفة تسوغ له قبول أمر غريب، أو عجيب، وتوهم تحقيقه بما تضي عليه من الاستظراف والملاحة، مع مراعاة معنى الكلام.

وهذا البحث: (حسن التعليل "دراسة بلاغية تاريخية فنية") يؤصل لهذا المصطلح في الدرس البلاغي، ويبين قيمته البلاغية من خلال التحليل البلاغي لبعض شواهد.

ويعتمد البحث -أولاً- على المنهج التاريخي الذي يعنى بتتبع المصطلح وتطوره في الدرس البلاغي، وثانياً على المنهج البلاغي التحليلي، الذي يعنى بتحليل النماذج الشعرية التي تجلي القيمة البلاغية لهذا اللون البديعي. مستعينا بالمؤلفات البلاغية، قديمها وحديثها، وشروح دواوين الشعر التي عنيت ببيان الجوانب البلاغية.

ويتألف البحث من مقدمة، ومبحثين، وخاتمة.

تتناول المقدمة أهمية الموضوع، وسبب اختياره، ومنهج البحث وخطة.

أما المبحث الأول فيتناول التأصيل البلاغي لهذا المصطلح في كتب البلاغيين من عصر أبي هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) إلى عصر الخطيب القزويني (ت ٧٣٩ هـ).

وأما المبحث الثاني فيتناول التحليل البلاغي لبعض النماذج الشعرية التي تبرز جمال حسن التعليل.

وأما الخاتمة ففيها خلاصة البحث، وأهم النتائج.

الكلمات المفتاحية: حسن التعليل - الاستشهاد - الاحتجاج - التخيلي المعلل - العلة الخيالية - تحليل بلاغي

Good reasoning - A historical, technical, rhetorical study

Ashraf Abdel-Qader Mohamed Abdel-Kader

Department of Rhetoric at the Islamic Girls

College, Assiut

dr.ashbm@gmail.com

Abstract:

Good reasoning is one of the means of reflection in saying, and a method of rhetorical persuasion, because it works to awaken the reader's imagination, arouse his emotion, and introduce pleasure to him by presenting a strange imaginary reason that allows him to accept something strange or strange, and the illusion of achieving it with what it bestows Foresight and navigation, taking into account the meaning of speech.

And this research: (well-explained, "an historical, rhetorical, technical study") rooted for this term in the rhetorical lesson, and shows its rhetorical value through rhetorical analysis of some of its evidence.

The research relies - first - on the historical method that deals with tracking the term and its development in the rhetorical lesson, and secondly on the rhetorical approach, which is concerned with the analysis of poetic models that show the rhetorical value of this buddy color. With the help of rhetorical literature, ancient and modern, and explanations of poetry collections that dealt with the rhetorical aspects.

The research consists of an introduction, two articles, and a conclusion.

The introduction covers the importance of the topic, the reason for its selection, the research methodology and its plan.

As for the first topic, it deals with the rhetorical basis of this term in the authors' rhetoric, from the era of Abu Hilal al-Askari (died 395 AH) to the era of al-Khatib al-Qazwini (died 739 AH).

As for the second topic, it deals with rhetorical analysis of some poetic models that highlight the beauty of well-explained.

As for the conclusion, it contains the summary of the research, and the most important results.

key words: Good reasoning - martyrdom - protest - imaginative reasoning - imaginary reason - rhetorical analysis

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمدًا يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، وأصلي وأسلم على صفوة رسله وخاتم أنبيائه سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد

فإن المحسنات البديعية - كغيرها من فنون القول - لا يكون لها نصيب من الجمال إلا إذا كان المعنى يتطلبها ويسوق إليها، فهي ليست مجرد ألفاظ عقيمة يلجأ إليها الأديب ليزين بها كلامه، وإنما تتحول على يد الأديب الماهر إلى شيء له قيمة إذا أحسن استخدامها، وأتى بها لتؤدي دورًا في إفادة المعنى، فيزداد الكلام بها شرفًا وفضيلة.

وقد قسم علماء البلاغة هذه المحسنات قسمين: قسم يرجع إلى اللفظ، وقسم يرجع إلى المعنى. والقول بأن التحسين لفظي - لا يعني إهدار جانب المعنى، وكذلك المعنوي لا يعني تجاهل اللفظ، وإنما يتجاور فيه اللفظ مع المعنى؛ فالمعنى هو الذي يقود العبارة إلى صورتها النهائية، ويُفصَحُ عما تحمله من دلالات بلاغية.

وقد لفت نظري من هذه المحسنات: (حسن التعليل)، الذي عده البلاغيون من مباحث البديع المعنوي، وبعد طول تأمل في هذا المبحث وإطلاع على ما كتبه البلاغيون فيه، وجدت أنه وسيلة من وسائل التقنن في القول، وطريق من طرق الإقناع البلاغي؛ لأنه يعمل على إيقاظ خيال القارئ، وإثارة وجدانه، وإدخال السرور عليه من خلال تقديم علة خيالية طريفة تسوغ له قبول أمر غريب، أو عجيب، وتوهم تحقيقه وتقريره بما تضيء عليه من الاستطراف والملاحة، مع مراعاة معنى الكلام، فاستخرت الله، وعقدت العزم على أن أتناول هذا المبحث بشيء من التفصيل في هذا

البحث الذي جعلت عنوانه: (حُسن التعليل - دراسة بلاغية تاريخية فنية)". وقد دعاني إلى اختيار هذا الموضوع عدة أسباب:

أولها: رغبتني في الرجوع بهذا المبحث إلى جذوره الأولى منذ ظهور بوادر الكلام عنه على يد أبي هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) في كتابه "الصناعتين"، إلى أن أخذ صورته النهائية على يد الخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ) في كتابيه: "تلخيص المفتاح"، و"الإيضاح"، تأصيلاً للمصطلح، وتتبعاً لتطوره التاريخي في كتب البلاغيين ودرسهم.

وثانيها: عدم وجود مؤلف يتناول هذا المبحث من جميع جوانبه، ويكشف النقاب عن دوره في خدمة المعنى، وجمال علته الخيالية التي يقوم عليها.

وجدير بالذكر أنني ظفرت ببعض البحوث التي تتصل بموضوع الدراسة، منها:

*بحث بعنوان: (حسن التعليل والقرآن) للدكتور: محمد بدري عبد الجليل، نشر في مجلة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية في عددها السابع والعشرين ١٩٧٩م، وكان هدفه من هذا البحث التعرف على لون من ألوان التعليل في القرآن الكريم، وهو ما يعبر عنه النحويون بالمفعول لأجله. وهو - بهذا التوجيه - بعيد كل البعد عن ذلك اللون البديعي الذي عرف عند البلاغيين بـ (حسن التعليل).

*بحث بعنوان: (حسن التعليل بين دالتين، دلالة بديعية ودلالة بيانية) للدكتورة: صفاء عليّ عبد الغني، نشر في مجلة كلية اللغة العربية بأسبوط في عددها الثامن والعشرين ٢٠٠٩م، ذكرت فيه تعريف حسن التعليل عند الخطيب القزويني، وتناولت أقسامه التي ذكرها، مع التمثيل والربط بين حسن التعليل فيها والمباحث البيانية. وقد شاب البحث خلطاً واضحاً بين هذه المباحث.

*بحث بعنوان: (حسن التعليل) من إعداد الباحث: عادل محمد فتحي في قسم اللغة العربية بكلية اللغات - جامعة المدينة العالمية بماليزيا، ولم يزد فيه عن سرد ما ذكره الخطيب القزويني في هذا المبحث دون زيادة تُذكر. الأمر الذي دعاني إلى دراسة متأنية لهذا اللون البلاغي، أتتبع فيه المصطلح، فأُتَبِنُ جذوره الأولى، وأتتبع تناول البلاغيين له، وتقسيمهم إياه، وشواهدهم التي ساقوها لكل قسم، وأتبع ذلك بدراسة فنية تحليلية للنماذج الشعرية التي تكشف عن جمال هذا اللون البديعي.

وثالثها: اعتماد التعليل في هذا اللون البلاغي على عدد وافرٍ من الألوان البلاغية التي تعين على إثارة خيال المتلقي، وإقناعه بالمعنى المتخيل، وتقريره في ذهنه.

ورابعها: مناقشة بعض البلاغيين الذين ألقوا بهذا المبحث ما أطلقوا عليه: (الملحق بحسن التعليل).

ونظراً لطبيعة الموضوع اتبعت - في هذا البحث - منهجين: المنهج التاريخي، وذلك في المبحث الأول، حيث يعين هذا المنهج على التأصيل البلاغي لهذا المصطلح، وتتبع تطوره في الدرس البلاغي. والمنهج التحليلي، وذلك في المبحث الآخر، وهو منهج يقوم على تحليل النماذج الشعرية التي وردت في كل قسم من أقسام هذا اللون البلاغي، مستعيناً فيه بالمؤلفات البلاغية، وشرح الدواوين الشعرية التي عنيت ببيان الجوانب البلاغية.

وقد اقتضت طبيعة الموضوع أن يتألف البحث من مقدمة، ومبحثين، وخاتمة.

أما المقدمة فقد بينت فيها أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، والخطة التي سرت عليها.

وأما المبحث الأول فقد جعلت عنوانه: حسن التعليل "دراسة بلاغية تاريخية"، وتتبع فيه مصطلح حسن التعليل وتطوره في كتب البلاغيين

ودرسهم من عصر أبي هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) إلى عصر الخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ).

وأما المبحث الآخر فقد جعلت عنوانه: حسن التعليل "دراسة تحليلية فنية"، وخصصته للتحليل البلاغي لبعض النماذج الشعرية التي تجلي القيمة البلاغية لهذا اللون البديعي، مع التركيز في التحليل على العلة الخيالية، ومدى مناسبتها للغرض الذي جاءت من أجله، وما اعتمدت عليه من ألوان بلاغية تعين على إثارة خيال المتلقي، وتقنعه بالمعنى المتخيل وتقرره في ذهنه.

وأما الخاتمة فقد ذكرت فيها خلاصة البحث، وأهم النتائج التي توصلت إليها من خلال دراستي لهذا الموضوع.

وبعد: فما كان في هذا البحث من خير فهو من توفيق الله وتسديده، وما كان من خطأ وزلل وتقصير، فالله اسأل أن يقبل عثرتي، ويغفر زلاتي، فهو ولي ذلك والقادر عليه.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المبحث الأول

حسن التعليل "دراسة بلاغية تاريخية"

مرَّ مصطلح حسن التعليل بعدة مراحل حتى استوى على سوقه، واستقر على تعريف واضح ومحدد عرف به عند البلاغيين والأدباء والدارسين.

لكن قبل أن أعرض لهذه المراحل أود أن أشير إلى أن هذا اللون كان له وجود في إبداع الشعراء قبل وجوده الاصطلاحي عند البلاغيين، فحين نبحت في كتب الأدب ودواوين الشعر نجد أن هذا اللون موجود في الشعر العربي منذ عرف العربيّ الشعر وعبر به عما يختلج في صدره من معان أو أحوال تحيط به وتؤثر في عاطفته، كالمدح أو الغزل أو الاعتذار إلى غير ذلك من الأغراض الشعرية التي تناولها الشعراء في قصائدهم، غير أن أقرب هذه الأغراض التي يظهر فيها "حسن التعليل - قبل وجوده الاصطلاحي -: حسن الاعتذار وهو: "أن يعتذر الشاعر عن شيء لا يرضاه آخر، ويعلله بتعليل رائق، سواء كان حقيقياً أو غير حقيقي، ولا بد فيه أن يكون بيانه سحرًا يحمل المخاطب على قبول العذر، ويجعل سخطه رضًا"^(١)، ومن هنا نجد أن ثمة علاقة بين المصطلح البلاغي "حسن التعليل" و"حسن الاعتذار"؛ ففي "حسن الاعتذار يجتهد الشاعر في التماس الحجة والدليل على براءته مما نسب إليه، وفي "حسن التعليل" يجتهد الشاعر في التماس علة طريفة مناسبة لغرضه، فكل منهما يسعى إلى نوع من الإقناع البلاغي الذي يستطيع من خلاله أن يحقق هدفه، ومن يقرأ اعتذارات النابغة الذبياني - الذي يعده النقاد مبتكر فن الاعتذار في الشعر

(١) غصن البان المورق بمحسّنات البيان، تأليف: محمد صديق خان القنّوجي، ص: ٥٤ طبعة دار الكتب العلمية. بيروت، لبنان. طبعة أولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

العربي - يجد الارتباط بين حسن التعليل وحسن الاعتذار، ومن ذلك قوله في مدح النعمان بن المنذر والاعتذار إليه^(١):

أُنْبِئْتُ أَنْ أَبَا قَابُوسٍ أَوْعَدَنِي *** وَلَا قَرَارَ عَلِيٍّ زَارٍ مِنَ الْأَسَدِ
مَهْلًا فِدَاءً لَكَ الْأَقْوَامُ كُلَّهُمْ *** وَمَا أَثْمَرَ مِنْ مَالٍ وَمِنْ وَدِّ
لَا تَقْذِفْنِي بِرُكْنٍ لَا كِفَاءَ لَهُ *** وَإِنْ تَأْتَفَكُ^(٢) الْأَعْدَاءُ بِالرَّفْدِ

ففي البيت الأول نجد حسن التعليل في قوله: وَلَا قَرَارَ عَلِيٍّ زَارٍ مِنَ الْأَسَدِ، فالنعمان أسد يزأر، ومن كانت هذه صفته، فحق لمن يتوعده أن ترتجف أوصاله، وترتعد نفسه؛ لذلك لا تستقر نفس النابغة مع هذا الزئير؛ هيبة له، كما لا تطيق ولا تسكن على زئير الأسد، فهو حسن تعليل مهد به لقبول اعتذاره الذي ذكره في بقية أبيات القصيدة التي آخرها قوله:

هَا إِنَّ ذِي عِذْرَةٍ إِلَّا تَكُنْ نَفَعْتُ *** فَإِنْ صَاحِبُهَا مِشَارِكُ النَّكَدِ
وَمِنَ الْإِعْتِذَارِ الْمَقْتَرَنِ بِحَسَنِ التَّعْلِيلِ، قول امرئ القيس^(٣):

وَمَا جَبُنْتُ خِيَلِي وَلَكِنْ تَدَكَّرْتُ *** مَرَابِضُهَا مِنْ بَرَبِيعِصَ وَمَيْسَرَا
ففي هذا البيت كنى امرؤ القيس بالخييل عن أصحابها، وبمرابضها عن مواضعهم، وفيه يعتذر عن هزيمة لحقت بهم ويعلل بأن أصحابه غير منهزمين لجبن أدركهم، أو ضعف استولى عليهم؛ ولكنهم نكروا المواطن والأهل، وحنن نفوسهم إليها، فرجعوا عن العدو حرصاً عن اللحاق بالأهل، ولتشفى النفوس بلقائهم^(٤).

ومن أجل ذلك يرى بعض الباحثين أن حسن الاعتذار يعدُّ اللبنة الأولى والجذر الأساسي لوجود حسن التعليل في بلاغتنا العربية^(٥).

(١) ديوان النابغة الذبياني، ص: ٢٦ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ، طبعة دار المعارف .

(٢) تأتفك الأعداء، أي: اجتمعوا حولك.

(٣) ديوان امرئ القيس، ص: ٧٠. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. طبعة دار المعارف.

(٤) ديوان امرئ القيس، ص: ٧٠.

(٥) حسن التعليل في البلاغة العربية. حسن سليم طنطاوي، ص: ٢٤. طبعة أولى. مطبعة صادق سلامة بالمنيا.

ومن حسن التعليل في الشعر الجاهلي، قول عنتره^(١):
ولقد ذكرتك والرماح نواهل *** مني وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها *** لمعت كبارقِ ثغرك المتبسم
فقد جعل عنتره العلة - في رغبته تقبيل السيوف - أنها تلمع في نظره
لمعان ثغر محبوبته حين تتبسم، وهي علة خيالية قصد بها مدح صاحبتة،
وهي لا تخلو من طرافة، فضلاً عن التصوير الجميل فيها.
ومن التعليل الذي لا يتضمن تخيلاً يرقى به إلى حسن التعليل قول
عنتره أيضاً^(٢):

وأغض طرفي ما بدت لي جارتي *** حتى يوارى جارتي مأواها
إني امرؤٌ سمح الخليقة ماجدٌ *** لا أتبع النفس اللجوج هواها
فقد علل غصَّ طرفه عن جارته - إذا بدت - بأنه ذو أخلاق سمحة
وأنه يسيطر على هوى نفسه.

وبذلك نرى أن "حسن التعليل" كان موجوداً في إبداع الشعراء منذ
العصر الجاهلي قبل وجوده الاصطلاحي، حتى وإن كان على غير صورته
التي عرف بها عند البلاغيين، فهو كما مرَّ، تارة يأتي في صورة اعتذار
كتعليلات النابغة، وتارة يأتي تعليلاً جاداً علته حقيقية كتعليلات عنتره، وتارة
يكون قائماً على الخيال، كتعليل امرئ القيس. ومع ذلك لم نجد في كتب
البلاغيين شاهداً واحداً من الشعر الجاهلي، ولعل إعراض علماء البلاغة عن
الاستشهاد لهذا اللون من الشعر الجاهلي سببه أن حسن التعليل فيه إيهام
الكذب كما قال الإمام عبد القاهر أن منه "ما يجيء مصنوعاً قد تُلطِّف فيه،
واستعين عليه بالرفق والحذق، حتى أعطي شبهاً من الحق، وعُشِّي رونقاً من

(١) شرح ديوان عنتره - الخطيب التبريزي ص: ١٩١، تقديم: مجيد طراد. دار الكتاب العربي. بيروت. طبعة أولى
١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

(٢) شرح ديوان عنتره، ص: ٢٠٨، ٢٠٩.

الصدق، باحتجاج تُمَجِّل، وقياس تُصنِّع فيه وتُعَمِّل^(١)، ويقول في موضع آخر: "وستمر بك ضروب من التخيل هي أظهر أمراً في البعد عن الحقيقة، وأكشف وجهاً في أنه خداعٌ للعقل، وضربٌ من التزييق"^(٢)، والشعراء الجاهليون ما كانوا يميلون إلى ذلك، لما جبلوا عليه من الصدق في الخيال^(٣).

وبعد هذه الإشارة أنتقل إلى تتبع تاريخ هذا اللون البلاغي محاولاً - قدر طاقتي - الكشف عن جذوره الأولى والأطوار التي مر بها في عصور التدوين والتأليف البلاغي، إلى أن استقر على هيئته التي عرف بها عند البلاغيين. وفيما يلي عرض لهذه المراحل:

أولاً: حسن التعليل عند أبي هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ)

ألف أبو هلال العسكري كتابه "الصناعتين"، وكان هدفه من تأليفه هو الإبانة عن حدود البلاغة، وأقسام البيان والفصاحة المبتوثة في مؤلفات من سبقه، وجعل الكتاب عشرة أبواب تشتمل على ثلاثة وخمسين فصلاً، ظهرت فيها علوم البلاغة الثلاثة (المعاني - البيان - البديع) ظهوراً واضحاً يدل على قيمة الكتاب في الدراسات البلاغية.

والذي يعيننا من هذه الأبواب هو الباب التاسع (شرح البديع والإبانة عن وجوهه وحصر أبوابه وفنونه)، وقد ضمن هذا الباب ستة وثلاثين نوعاً من أنواع البديع^(٤)، عرض هذه الأنواع عرضاً مفصلاً مشفوعاً بالشواهد مختار الكلام (شعره ونثره)، ومن الأنواع التي ذكرها: الاستشهاد والاحتجاج، وذكر فيه: "أن هذا الجنس كثيرٌ في كلام القدماء والمحدثين،

(١) أسرار البلاغة للإمام أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني ص: ٢٦٧ تحقيق: محمود محمد شاكر. دارالمدني بجدّة.

(٢) أسرار البلاغة، ص: ٢٧٥.

(٣) حسن التعليل ص: ١٠، ١١.

(٤) كتاب الصناعتين "الكتابة والشعر". لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري ص: ٥ تحقيق: علي محمد البيجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم. دار إحياء الكتب العربية. عيسى البابي الحلبي. طبعة أولى ١٣٧١هـ

حسن التعليل - دراسة بلاغية تاريخية فنية

وهو أحسن ما يُتعاطى من صنعة الشعر، ومجراه مُجرى التذييل لتوليد المعنى، وهو: أن تأتي بمعنى ثم تؤكد بمعنى آخر يجرى مجرى الاستشهاد على الأول، والحجة على صحته^(١)، فقله: (يجرى مجرى الاستشهاد على الأول، والحجة على صحته) فيه إشارة إلى مصطلح حسن التعليل الذي ذكره العلماء بعده، إلا أنه جعل العلاقة بين المعنى الأول والمعنى الثاني علاقة تأكيد، بينما العلاقة بين المعنى الأول والمعنى الثاني - فيما عرف بعد بحسن التعليل - علاقة تعليل.

وقد ساق لهذا اللون أمثلة كثيرة، تدور كلها حول ذم الشيب أو مدحه، والميل للحبيب الأول أو الأخير أو كليهما، ومن الأمثلة التي ذكرها قول أبي تمام^(٢):

غدا الشيب^(٣) مختطاً بفوديّ خطّة *** طريق الردى منها إلى النفس مهيع
هو الزور يجفى والمعاشر يجتوى *** وذو الإلف يُقلَى والجديد يُرقّع
له منظرٌ في العين أبيض ناصع *** ولكنه في القلب أسود أسفع
ونحن نزجيه على السخط^(٤) والرضا *** وأنف الفتى من وجهه وهو أجدع

ومن الأمثلة قول أبي تمام أيضاً^(٥):

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى *** ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل في الأرض يألّفه الفتى *** وحينه أبداً لأول منزل

وعلى كثرة الشواهد التي ذكرها للتدليل على هذا الفن البلاغي، إلا أنه لم يشر إلى مصطلح (حسن التعليل) على الرغم من وروده في شعره.

(١) كتاب الصناعتين ص: ٤١٦.

(٢) من قصيدة يمدح فيها أبا سعيد محمد بن يوسف الثغري، ينظر: ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي ٣٢٤/٢ تحقيق: محمد عبده عزام. طبعة رابعة. دارالمعارف.

(٣) في الديوان: غدا الهم...

(٤) في الديوان: ونحن نزجيه على الكره...

(٥) في ديوانه. باب الغزل ٣٠٣/٤.

ومما جاء منه في شعره قوله:

زعم البنفسجُ أنه كعذاره *** حسناً فسلوا من قفاه لسانه^(١)

ففي البيت وصف ثابت غير ظاهر العلة؛ لأن خروج ورقة البنفسج إلى الخلف لا علة له، لكنه ادعى أن علة الافتراء على المحبوب، ولعل السبب في عدم إشارته لحسن التعليل هو أن هذا المصطلح لم يكن معلوماً في عصره، ومما يدلُّ على ذلك: أن القاضي الجرجاني (ت: ٣٦٦هـ) ذكر قول المتنبي^(٢):

لم تحك نائلك السحاب وإنما *** حمت به فصيبها الرخضاء

وعلق عليه بقوله: " هل زاد على أن جعل السحاب يحم، فأفرط"^(٣)، فهو في تعليقه على البيت لم يذكر (حسن التعليل) على الرغم من أن البيت من الشواهد المعروفة عند البلاغيين لحسن التعليل، وممن أورد البيت في حسن التعليل: الخطيب القزويني (ت: ٧٣٩هـ)، وعلق عليه بقوله: "إن نزول المطر لا يظهر له في العادة علة"^(٤).

وعلى كثرة الشواهد التي ذكرها أبو هلال العسكري في هذا الباب، إلا أنه لم يستشهد بها أحدٌ - في حسن التعليل - ممن أتوا بعده، والملاحظ أن جميع ما ساقه أبو هلال من الأمثلة في هذا الباب موزعٌ بين ما عُرف "بحسن التعليل"، و"التشبيه الضمني"، و"المذهب الكلامي"^(٥) وقد نبه

(١) ديوان المعاني للإمام اللغوي الأديب أبي هلال العسكري ٢٤٠/١ شرحه: أحمد حسن بسج. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. طبعة أولى ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.

(٢) من قصيدة يمدح فيها أبا علي هارون بن عبد العزيز الكاتب، ينظر: ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العسكري المسمى بالتبنيان في شرح الديوان ٣٠/١. دار المعرفة للطباعة والنشر. بيروت. لبنان.

(٣) الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ص: ١٨١، ١٨٠. تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، على محمد الجاوي. مطبعة عيسى البابي الحلبي.

(٤) الإيضاح في علوم البلاغة (المعاني والبيان والبدیع) للخطيب القزويني ص: ٣٧٩. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. طبعة أولى ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

(٥) الصبغ البديعي في اللغة العربية. الدكتور أحمد إبراهيم موسى، ص: ١٧٤. دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ١٣٨٨هـ ١٩٦٦م.

حسن التعليل - دراسة بلاغية تاريخية فنية

أبو هلال على التشبيه، حيث ختم كلامه عن هذا الباب بقوله: "وتدخل أكثر هذه الأمثلة في التشبيه أيضًا"^(١).

ثانيًا: حسن التعليل عند ابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦هـ)

ذكر ابن سنان في مقدمة كتابه - سر الفصاحة - الغرض من تأليف هذا الكتاب، فقال: "أما بعد، فأني لما رأيت الناس مختلفين في مائة^(٢) الفصاحة وحقيقتها أودعت كتابي هذا طرْفًا من شأنها، وجملة من بيانها، وقربت ذلك على الناظر، وأوضحته للمتأمل، ولم أمل بالاختصار إلى الإخلال، ولا مع الإسهاب إلى الإملال"^(٣)، وقدم ابن سنان بين يدي غرضه عدة فصول تلحظ فيها حسن التنسيق والتبويب الذي يدلُّ على الجهد الذي بذله في هذا الكتاب.

والذي يعينني من هذه الفصول ما عرض له من ألوان البديع، وهي واحد وعشرون لونا من ألوان البديع، كان آخرها: الاستدلال بالتعليل، ومقصد ابن سنان من الاستدلال بالتعليل - كما ظهر من أمثله - تقديم العلة التي يُستدلُّ بها على إثبات معنى من المعاني، سواء أكانت العلة حقيقية أم خيالية، تطابق الواقع أو لا تطابقه.

ومن الأمثلة التي ساقها لليلة الخيالية التي لا تطابق الواقع، قول أبي الحسن التهامي^(٤):

لو لم يكن أقحواناً ثغر مبسمها *** ما كان يزداد طيباً ساعة السحر

(١) كتاب الصناعتين: ٤١٩.

(٢) نسبة إلى (ما) الاستفهامية، وقد يقال: (ماهية) بقلب الهمزة هاء.

(٣) سر الفصاحة لأبي محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي ص: ١٣ طبعة دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. طبعة أولى ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

(٤) البيت في ديوانه من قصيدة يمدح فيها أبا غانم محمد بن الحسين البابلي، ينظر: ديوان أبي الحسن علي بن محمد التهامي ص: ٣٥٥ تحقيق: الدكتور محمد بن عبد الرحمن الربيع. مكتبة المعارف. الرياض. طبعة أولى ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

فقد جعل علة ازدياد طيب ثغرها ساعة السحر هو الشبه بين ثغرها وبين الأفعوان، وهي علة خيالية.

ومن الأمثلة أيضا قول البحري^(١):

ولو لم تكن ساخِطًا لم أكن *** أذمُّ الزمان وأشكو الخُطوبِ

فجعل العلة في ذم الزمان وشكواه هي سخط الممدوح عليه، وهي علة غير حقيقية.

ومن الأمثلة التي ساقها لليلة الحقيقية قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾^(٢)، فعلة عدم فسادهما هي عدم تعدد الآلهة، وهي علة حقيقية.

ونلاحظ أن ابن سنان لم يذكر تعريفاً يحدد مراده من الاستدلال بالتعليل، ولم يعلق على شاهد واحدٍ من الشواهد التي ساقها لهذا اللون البلاغي، بل إنه خلط في شواهد بين ما علته حقيقية وما علته خيالية، فقد خلط بين شواهد الاستدلال بالتعليل، وبين ما عُرف عند البلاغيين بمصطلح المذهب الكلامي^(٣)؛ فالآية التي أوردتها شاهداً لما علته خيالية، يذكرها البلاغيون ضمن شواهد المذهب الكلامي، والمذهب الكلامي علته حقيقية، وهذا يدلُّ على أن جهد ابن سنان في هذا المبحث ينحصر في التذليل على وجود الاستدلال بالتعليل في القرآن الكريم وفي كلام العرب.

ثالثاً: حسن التعليل عند الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ)

تناول الإمام عبد القاهر في كتابه أسرار البلاغة ألواناً من البديع إلا أنه لم يعرض لكل الألوان البديعية التي عُرفت قبله، بل اختار منها ألواناً استدعاها هدفه من تأليف هذا الكتاب، وهو شرحه لنظرية النظم التي يبين

(١) البيت في ديوانه من قصيدة يمدح فيها الفتح بن خاقان ويعاتبه، ينظر: ديوان البحري ١٥٢/١ تحقيق: حسن كامل الصيرفي. طبعة ثالثة. دار المعارف.

(٢) سورة الأنبيا، الآية: ٢٢.

(٣) المذهب الكلامي هو: "أن يورد المتكلم حجة لما يدعيه على طريق أهل الكلام". ينظر: الإيضاح للخطيب القزويني ص: ٢٧٧، ٣٧٨.

فيها أن جمال البلاغة ليس في اللفظ وحده، ولا في المعنى وحده، وإنما في نظم الكلام، وقد بذل في سبيل ذلك مجهوداً مضمناً حتى وإن كنا نرى في بادئ الأمر اضطراباً في حديثه عن اللفظ والمعنى، فتارةً ينصر اللفظ، وتارةً ينصر المعنى، إلا أنه في آخر الأمر ينتصر للنظم، ويعظم شأنه، ويعلي من قدره، ويجعله موطن البلاغة، وسر الإعجاز.

ومن ألوان البديع التي عرضها في كتابه: (التخييل)، وقد عرضه في أثناء تمهيده للحكم على الشاعر بالأخذ والسرقة من غيره، فقال: "اعلم أن الحكم على الشاعر بأنه أخذ من غيره وسرق، واقتدى بمن تقدم وسبق، لا يخلو أن يكون في المعنى صريحاً، أو في صيغة تتعلق بالعبارة، ويجب أن نتكلم أولاً على المعاني. وهي تنقسم أولاً قسمين: عقلي وتخييلي، وكل واحد منهما يتنوع"^(١).

وهو في هذا المدخل يقسم المعاني قسمين: عقلي وتخييلي، والذي يعيننا منهما هو القسم التخييلي، وهو ما عناه البلاغيون المتأخرون (بحسن التعليل)، إلا أننا لو تأملنا ما كتبه في هذا القسم لوجدنا أن التخييلي عنده أعم من حسن التخييل عند البلاغيين المتأخرين، وأعم كذلك من الاستدلال بالتعليل الذي ذكره ابن سنان؛ فالإمام عبد القاهر يقسم التخييل إلى معلل، وغير معلل.

والذي يعينني منهما هو التخييلي المعلل، وقد ذكر الإمام عبد القاهر أن هذا النوع "لا يمكن أن يقال إنه صدق، وإن ما أثبتته ثابت، وما نفاه منفي"^(٢).

وذكر أنه لا يمكن حصر أقسام هذا النوع فقال: "وهو مفتن المذاهب كثير المسالك، لا يكاد يحصر إلا تقريباً، ولا يحاط به تقسيماً وتبويباً"^(٣).

(١) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني ص: ٢٦٣.

(٢) أسرار البلاغة ص: ٢٦٧.

(٣) السابق: الصحيفة نفسها.

وذكر من أنواعه:

ما يجيء مصنوعاً قد تُلطّف فيه، واستعين عليه بالرفق والجذق، حتى أعطي شَبهاً من الحق، وعُشّي رونقاً من الصدق، باحتجاج مُمَجّل، وقياس تُصنّع فيه وتُعْمَل، ومثاله قول أبي تمام^(١):

لا تُنكري عَطَلَ الكَريمِ من الغنى * فالسيل حربٌ للمكان العالِي**
فهذا قد خيّل إلى السامع أن الكريم إذا كان موصوفاً بالعلو والرفعة في قدره، وكان الغني كالغيث في حاجة الخلق إليه وعِظَم نفعه، وجب بالقياس أن يزَلَّ عن الكريم زليل السيل عن الطود العظيم، ومعلوم أنه قياس تخييل وإيهام، لا تحصيل وإحكام، فالعلة في أن السيل لا يستقر على الأمكنة العالية، أن الماء سيالٌ لا يثبت إلا إذا حصل في موضع له جوانب تدفعه عن الانصباب، وتمنعه عن الانسياب، وليس في الكريم والمال شيء من هذه الخلال^(٢).

وتابع الإمام عبد القاهر حديثه عن هذا النوع، فذكر كثيراً من الشواهد وعلق عليها تعليقاً فنياً تجد فيه روح الأديب، ودقة الناقد الخبير بالألفاظ والمعاني، وناقش من خلال ذلك قولهم: (خير الشعر أكذبه)، وقولهم: (خير الشعر أصدقه) وبين علاقتهما بالتخييل، فقال: "فمن قال: (خيرهُ أصدقه) كان ترك الإغراق والمبالغة والتجوز، إلى التحقيق والتصحيح، واعتماد ما يجري من العقل على أصل صحيح، أحبّ إليه وأثر عنده؛ إذ كان ثمره أحمى، وأثره أبقي، وفائدته أظهر، ومن قال: (أكذبه) ذهب إلى أن الصنعة إنما تمد باعها، وتشر شعاعها، ويتسع ميدانها، وتتفرع أفنانها، حيث يعتمد الاتساع والتخييل، ويدعى الحقيقة فيما أصله التقريب والتمثيل..... وهناك يجد الشاعر سبيلاً إلى أن يُبدع ويزيد، ويُبدى في اختراع الصور ويعيد،

(١) البيت من قصيدة يمدح فيها الحسن بن رعاء. ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي ٧٧/٢.

(٢) أسرار البلاغة ص: ٢٦٧.

ويصادف مضطرباً كيف شاء واسعاً، ومددًا من المعاني متتابعًا، ويكون كالمعترف من عدّ لا ينقطع، والمستخرج من معدنٍ لا ينتهي^(١).

ثم ذكر أن الاستعارة لا تدخل في قبيل التخييل؛ "لأن المستعير لا يقصد إلى إثبات معنى اللفظة المستعارة، وإنما يعتمد إلى إثبات شبهه هناك، فلا يكون مخبره على خلاف خبره"^(٢)، ودلّ على ذلك بأمثلة عديدة من القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف.

ثم بين مراده من التخييل فقال: "وجملة الحديث أن الذي أُريد به بالتخييل ههنا ما يُثبت فيه الشاعر أمرًا هو غير ثابت أصلًا، ويدّعي دعوى لا طريق إلى تحصيلها، ويقول قولًا يخدع فيه نفسه ويربها ما لا ترى، أما الاستعارة فإن سبيلها سبيل الكلام المحذوف في أنك إذا رجعت إلى أصله وجدت قائله يثبت أمرًا عقليًا صحيحًا"^(٣).

ومن أنواعه: "أن يُدعى في الصفة الثابتة للشيء أنه إنما كان لعله يضعها الشاعر ويختلفها، إما لأمر يرجع إلى تعظيم الممدوح، أو تعظيم أمرٍ من الأمور، فمن الغريب في ذلك معنى بيت فارسي ترجمته:

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته * * * لما رأيت عليها عقد مُنتطق^(٤)

والذي فهمته من هذا الكلام أن هذا النوع تكون فيه علة لصفة ثابتة يدعيها الشاعر ويختلفها من خياله لغرض من الأغراض؛ كتعظيم الممدوح، أو تعظيم أمرٍ من الأمور، فانتطاق الجوزاء - أي: إحاطة النجوم بها. صفة ثابتة ادعى لها الشاعر علة خيالية هي نية الجوزاء خدمة الممدوح، وهي علة خيالية طريفة تناسب تعظيم الممدوح.

(١) السابق ص: ٢٧٢.

(٢) السابق ص: ٢٧٣.

(٣) أسرار البلاغة ص: ٢٧٥.

(٤) أسرار البلاغة ص: ٢٧٧، ٢٧٨.

ومن الأنواع التي ذكرها للتخييل المعلل: نفي علة مشهورة وإدعاء أخرى "وهو أن يكون للمعنى من المعاني، والفعل من الأفعال علة مشهورة من طريق العادات والطباع، ثم يجيء الشاعر فيمنع أن يكون لتلك العلة المعروفة، ويضع له علة أخرى، مثاله قول المتنبي^(١):

ما به قتل أعاديه ولكن * يتقي إخلاف ما ترجو الذئاب**
فالذي يتعارفه الناس أن الرجل إذا قتل أعاديه، فلإرادته هلاكهم، وأن يدفع مضارهم عن نفسه، وليسلم ملكه ويصفو من منازعاتهم، وقد ادعى المتنبي - كما ترى - أن العلة في قتل هذا الممدوح لأعدائه غير ذلك^(٢).

فالمتنبي تخيل علة أخرى غير العلة المشهورة، وهي أن الممدوح يقتل الأعداء، لأجل ألا يخيب رجاء الذئاب في كرمه؛ حيث إنهم يملئون بطونهم من جثث قتلاه، فالشاعر نفى علة القتل المشهورة، وادعى علة طريفة تناسب كرم الممدوح.

وقد اشترط الإمام عبد القاهر "أن يكون للعلة المدعاة فائدة شريفة فيما يتصل بالممدوح، أو أن يكون لها تأثير في الدم، كقصد المتنبي ههنا في أن يبالح في وصفه بالسخاء والجود، وأن طبيعة الكرم قد غلبت عليه، ومحبته أن يصدق رجاء الراجين، وأن يجنبهم الخيبة في آمالهم قد بلغت به هذا الحد، فلما علم أنه إذا غدا للحرب غدت الذئاب تتوقع أن يتسع عليها الرزق، ويخصب لها الوقت من قتلى عداه، كره أن يخلفها، وأن يخيب رجاءها ولا يسعفها، وفيه نوع آخر من المدح، وهو أن يهزم العدى ويكسرهم كسراً لا يطمعون بعده في المعاودة، فيستغني بذلك عن قتلهم وإراقة دمائهم، وأنه ليس ممن يسرف في القتل طاعة للغيب والحنق، ولا يعفو إذا قدر، وما يشبه هذه الأوصاف الحميدة"^(٣).

(١) البيت في ديوانه من قصيدة يمدح فيها بدرين عمار وهو على الشراب والفاكهة حوله ١٣٤/١.

(٢) أسرار البلاغة ص: ٢٩٦.

(٣) السابق ص: ٢٩٦، ٢٩٧.

فالعلة التي أتى بها المتنبّي، وهي اتقاء خيبة رجاء الذئاب في كرمه، علة غير مطابقة، إلا أن لها فائدة هي المبالغة في وصف الممدوح بالسخاء والكرم، وفيها من اللطف والدقة ما لا يخفى.

ومن خلال ما سبق يمكن القول بأن الإمام عبد القاهر هو أول من وضع البذور الأولى لهذا اللون البلاغي، وفتح باب دراسته لمن أتى بعده من البلاغيين؛ فقد وضع له الأسس والقواعد التي يقوم عليها، ووضح المقصود بالعلة المتخيلة فيه، ووضع لها شروطاً إذا اختل واحد منها خرج الكلام عن حسن التعليل.

وثمة ملحوظة وهي: أن الإمام عبد القاهر لم يستشهد في هذا القسم بآية واحدة من القرآن الكريم، ولا بحديث شريف، ولعل السبب في ذلك هو أن الرجل يتحدث عن التخيل القائم على ادعاء العلة واختلاقها، وهذا لا وجود له في كتاب الله، ولا في كلام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فله دره!

رابعاً: حسن التعليل عند رشيد الدين الوطواط (ت ٥٧٣هـ)

يعد كتاب (حدائق السحر في دقائق الشعر) لرشيد الدين الوطواط^(١) من أهم المؤلفات التي عنيت بالبلاغة الفارسية، وقد قيل عنه: "حدائق السحر في دقائق الشعر، من أهم النماذج والمصادر لكل من ألف في الصنائع البديعية باللغة الفارسية"^(٢). وقد تضمن الكتاب علوم البلاغة الثلاثة دون تقسيم أو تبويب؛ نظراً لأن علوم البلاغة كانت متداخلة في عصره، وظلت على هذا النحو حتى عصر السكاكي (ت ٦٢٦هـ). وعلى الرغم من

(١) هو محمد بن عبد الجليل العمري البلخي المعروف بالوطواط، ولد سنة ٤٨٠هـ، أفضل أهل زمانه في النظم والنثر، وأعلم الناس بدقائق كلام العرب وأسرار النحو والأدب، وقد عرف بالوطواط لضآلة حجمه، وحدة لسانه، توفي سنة ٥٧٣هـ، وقيل: سنة ٥٧٨هـ ودفن في جرجانية خوارزم، له عدد كبير من المؤلفات أشهرها حدائق السحر. ينظر: معجم الأدباء - ياقوت الحموي ٦/ ٢٦٣١ : ٢٦٣٦ تحقيق: إحسان عباس. طبعة دار الغرب الإسلامي. بيروت ١٩٩٣م.

(٢) علوم البلاغة عند العرب والفريسي (دراسة مقارنة) للدكتور: إحسان صادق سعيد ص: ١٠٠. نشر المستشرية الثقافية الإيرانية. دمشق. طبعة أولى ١٤٢١هـ. ٢٠٠٠م.

أن الكتاب حوى علوم البلاغة الثلاثة، إلا أن علم البديع كان طاغياً في الكتاب على أخويه (المعاني والبيان)، فقد تضمن الكتاب ثمانين نوعاً من البديع، مقرونة بالشواهد العربية والفارسية، فقد كان منهجه أن يبدأ كل مبحث بالشرح، ثم يعقبه بالشواهد العربية متلوة بالشواهد الفارسية.

ومن الألوان البديعية التي تناولها في كتابه: (حسن التعليل)، وعرفه بقوله: "أن يذكر الشاعر في بيت من أبياته صفتين من الصفات، ويجعل الواحدة منهما علة للأخرى، وليس غرضه من ذلك مجرد ذكر هاتين الصفتين، ولكنه يذكرهما بهذه الطريقة؛ حتى يزداد بذلك جمال أسلوبه، وإبداع عبارته"^(١).

وذكر له شاهداً واحداً من الشعر العربي هو قول الزمخشري:

وإن غادر الغدران في صحن وجنتي *** فلا غرو منه لم يزل وأبلاً يهمي

وعلق عليه بقوله: " فقد أثبت الغدران لصحن وجنته بعله أن الممدوح

وابل يهمي، والوابل الهامي علة كذلك في الغدران"^(٢).

ثم ذكر "أن هذا الأسلوب مستعمل كثيراً في العربية والفارسية"^(٣).

وبذلك نرى أن رشيد الدين الطواط هو أول من أطلق مصطلح

(حسن التعليل) على هذا اللون البلاغي، وذكر له تعريفاً قريباً من التعريف

المصطلح عليه عند البلاغيين، على الرغم من أنه لم يذكر له إلا شاهداً

واحداً من الشعر العربي.

خامساً: حسن التعليل عند فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ)

أعلن الرازي في مقدمة كتابه: "نهاية الإيجاز" أن هدفه من تأليف

الكتاب هو تنظيم ما كتبه الإمام عبد القاهر في كتابيه: دلائل الإعجاز

(١) حدائق السحرفي دقائق الشعر. رشيد الدين محمد العمري وطواط، ص: ١٨٩. ترجمه من الفارسية إلى العربية:

إبراهيم أمين الشوازي. طبعة المركز القومي للترجمة. طبعة ثانية ٢٠٠٩م.

(٢) السابق ص: ١٩٠.

(٣) السابق: نفس الصحيفة.

وأسرار البلاغة فقال: ".... ولكنه - رحمه الله -، لكونه مستخرجاً لأصول هذا العلم وأقسامه وشرائطه وأحكامه، أهمل رعاية ترتيب الفصول والأبواب، وأطنب في الكلام كل الإطناب، ولما وفقني الله لمطالعة هذين الكتابين، التقطت منهما معاهد فوائدها، وراعت الترتيب مع التهذيب، والتحرير مع التقرير، وضبطت أوابد الإجماليات في كل باب بالتقسيمات اليقينية، وجمعت متفرقات الكلم في الضوابط مع الاجتناب عن الإطناب الممل، والاحتراز عن الإيجاز المخل"^(١).

فالكتاب تنظيم وتبويب لما كتبه عبد القاهر في صورة جديدة، ضبط فيها القواعد البلاغية، وحصر فروعها وأقسامها حصراً دقيقاً، وقد أشار - في كتابه - إلى أنه لخص كثيراً من الألوان البديعية التي ذكرها رشيد الدين الوطواط في كتابه حدائق السحر، وعُني ببعض ما كتبه الزمخشري في الكشف، مما جعل لكتابه قيمة عظيمة في قضية الإعجاز، ودراسة البلاغة؛ لأنه يعدُّ حلقة الوصل بين بلاغة عبد القاهر وبلاغة السكاكي ومن جاء بعده.

وقد تألف كتابه من مقدمة وجملتين، خصّ الجملة الأولى بالحديث عن المفردات، وذكر فيها طائفة من المحسنات اللفظية، بالإضافة إلى الصور البيانية، وخصّ الجملة الثانية بالحديث عن النظم، فذكر فيها مجموعة من القواعد الخاصة بالنظم - كما صورها الإمام عبد القاهر - مع العناية بالمحسنات المعنوية.

ومن المحسنات المعنوية التي ذكرها في هذا الباب: حسن التعليل، وعرفه بقوله: "وهو أن يُذكر وصفان أحدهما لعلّة الآخر، ويكون الغرض ذكرهما جميعاً"^(٢).

(١) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للإمام فخر الدين محمد بن عمر بن حسين الرازي ص: ٢٥، تحقيق: الدكتور نصر الله حاجي، دار صادر، بيروت، طبعة أولى ١٤٢٤هـ ٢٠٠٤م.

(٢) نهاية الإيجاز، ص: ١٨٠.

فهو في تعريفه لحسن التعليل، نقل ما كتبه رشيد الوطواط، مع الاختصار في عبارته، واستشهد له بالشاهد نفسه دون أن يعلق عليه. وبذلك نرى أن الرازي - رحمه الله - لم يضيف جديدًا إلى ما كتبه رشيد الدين الوطواط في كتابه حدائق السحر.

سادسًا: حسن التعليل عند ابن أبي الإصبع المصري (ت ٦٥٤هـ)

تناول ابن أبي الإصبع مصطلح (حسن التعليل) في كتابين هما: بديع القرآن، وتحرير التحبير، إلا أنه عنون له بـ (التعليل) وعرفه في بديع القرآن بقوله: "هو أن يريد المتكلم ذكر حكم واقع، أو متوقع، فيقدم قبل ذكره علة وقوعه؛ لكون رتبة العلة التقدم على المعلول"^(١).

والأمثلة التي ساقها لهذا اللون كلها من القرآن الكريم، ومنها قوله تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٢)، وعلق على الآية بقوله: "فسبق الكتاب من الله - تعالى - هو العلة في النجاة من العذاب"^(٣).

ولعل السر في عدم استشهاده بغير القرآن، هو أنه كان يتكلم عن بديع القرآن، والعلة في القرآن حقيقية لا خيالية، وهذا يعني أن حديثه عن التعليل في كتاب (بديع القرآن) لا يدخل في حسن التعليل.

أما كتابه (تحرير التحبير) فقد ضمنه مائة وعشرين لونا من ألوان البديع، ومن بينها: (التعليل)، وعرفه التعريف الذي ذكره في بديع القرآن، لكن الجديد في هذا الكتاب أنه قسم التعليل قسمين، أولهما: ما تقدمت فيه العلة على المعلول، واستشهد له بالشواهد القرآنية التي استشهد بها في كتابه (بديع القرآن)، وأضاف إليها شواهد من الحديث النبوي، ومن الشعر، فمن الحديث قوله . صلى الله عليه وسلم . : "لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم

(١) بديع القرآن لابن أبي الإصبع المصري ص: ١٠٩. تحقيق: حفي محمد شرف. نهضة مصر للطباعة والنشر.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٦٨.

(٣) بديع القرآن، ص: ١٠٩.

بالسواك عند كل صلاة^(١). فخوف المشقة على الأمة هو العلة في التخفيف عنهم من الأمر بالسواك عند كل صلاة. ومن الشعر قول البحري^(٢):

ولو لم تكن ساخِطًا لم أكن *** أذمُّ الزمان وأشكو الخطوب
فوجود سخط الممدوح هو العلة في شكوى الشاعر الزمان^(٣).

وثانيهما: ما تقدم فيه المعلول على العلة إغرابًا وطرفة، واستشهد له بأمثلة من الشعر، منها قول مسلم بن الوليد^(٤):

يا وإشياء حسنت فينا إساءته *** نجى حذارك إنساني من الغرق
فإن هذا البيت لم يسمع في هذا الباب مثله... حيث اشتمل على ثلاثة عشر نوعًا من البديع^(٥)، والقسم الثاني من أقسامه هو الذي تشتم فيه رائحة حسن التعليل؛ لأن العلة فيه خيالية، وتقوم على الإغراب والطرفة، بخلاف سابقه.

سابعًا: حسن التعليل عند بدر الدين بن مالك (ت ٦٨٦هـ)

ألف بدر الدين بن مالك كتابه: "المصباح في المعاني والبيان والبديع"، وهو تلخيص للقسم الثالث من كتاب مفتاح البلاغة للسكاكي^(٦)، وذكر فيه ثمانية وخمسين لونًا من ألوان البديع، منها: التعليل، وعرفه بقوله: "أن تقصد إلى حكم فتراه مستبعدًا؛ لكونه قريبًا أو عجيبيًا أو لطيفًا،

(١) أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه: "لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك". ينظر: الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ٣٥٢/٤ حديث رقم (٧٢٤٠) كتاب التمني. باب ما يجوز من اللؤ، وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ﴾ تحقيق: محب الدين الخطيب. المكتبة السلفية بالقاهرة. طبعة أولى ١٤٠٠هـ.

(٢) البيت في ديوانه ١٥٢/١.

(٣) تحرير التحرير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لابن أبي الإصبع المصري ص: ٣٠٨ تحقيق: الدكتور حفني محمد شرف. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

(٤) البيت في ذيل الديوان ص: ٣٢٨. ينظر: شرح ديوان صريع الغواني. مسلم بن الوليد الأنصاري. تحقيق الدكتور سامي الدهان. طبعة ثالثة. دار المعارف.

(٥) تحرير التحرير ص: ٣١١، ٣١٢.

(٦) البلاغة تطور وتاريخ. الدكتور شوقي ضيف ص: ٣١٥. طبعة دار المعارف. طبعة تاسعة.

أو نحو ذلك، فتأتي - على سبيل التطرف - بصفة مناسبة للتعليل، فتدعي كونها علة للحكم، لتوهم تحقيقه، فإن إثبات الحكم بذكر علته أروج في العقل من إثباته بمجرد دعواه^(١).

واستشهد له بقول مسلم بن الوليد^(٢):

يا واثياً حسنت فينا إساءته *** نجى حذارك إنساني من الغرق
وعلق عليه تعليقاً مطولاً وضح فيه جمال التعليل في البيت
وطرافته^(٣).

ونلاحظ في تعريف بدر الدين بن مالك للتعليل قربه من تعريف البلاغيين المتأخرين لحسن التعليل (أن يدعى لوصف علة مناسبة له باعتبار لطيف غير حقيقي)^(٤)، فقله: (فتأتي - على سبيل التطرف - بصفة مناسبة للتعليل)، يؤدي ما يؤديه قولهم في التعريف: (أن يدعى لوصف علة مناسبة له باعتبار لطيف)، وقوله: (فتدعي كونها علة للحكم؛ لتوهم تحقيقه) يؤدي ما يؤديه قولهم في التعريف: (غير حقيقي)، وعلى ذلك يمكننا القول بأن تعريف ابن مالك للتعليل، يعدُّ خطوة جديدة من خطوات تطور مصطلح حسن التعليل، وإضافة جديدة أنارت الطريق لمن جاء بعده من البلاغيين، على الرغم من أنه لم يصرح بمصطلح (حسن التعليل)، وإنما عنون له في كتابه ب (التعليل).

ثامناً: حسن التعليل عند الشهاب الحلبي (ت ٧٢٥هـ)

تناول الشهاب الحلبي عدداً من الألوان البديعية في كتابه: (حسن التوسل إلى صناعة التوسل)، وكان من بينها حسن التعليل وقد عرفه بقوله:

(١) المصباح في المعاني والبيان والبديع . بدر الدين بن مالك . ص: ٢٤١ تحقيق: دكتور حسني عبد الجليل يوسف .

مكتبة الآداب ومطبعها بالجماميز.

(٢) البيت في ذيل الديوان ص: ٣٢٨.

(٣) المصباح في المعاني والبيان والبديع ص: ٢٤٢.

(٤) الإيضاح للخطيب القزويني ص: ٢٧٧ (مرجع سابق).

حسن التعليل - دراسة بلاغية تاريخية فنية

"هو أن يدعى لوصف علة مناسبة له باعتبار لطيف"^(١). وذكر أنه يأتي على ضربين:

الأول: أن الصفة ثابتة فُصد بيانها، أو غير ثابتة، فالأولى لا يظهر لها في العادة علة، كقوله:

لم تحك نائلك السحاب وإنما *** حُمّت به فصيبها الرضاء
والثانية تظهر لها علة كقوله:

ما به قتل أعاديته ولكن *** يتقي إخلاف ما ترجو الذئاب
فإن قتل الأعداء - في العادة - لمضرتهم، لا لما ذكره.

والضرب الثاني: إما أن تكون الصفة ممكنة كقوله:

يا وإشياً حسنت فينا إساءته *** نجي جذارك إنساني من الغرق
فإن استحسان إساءة الواشي ممكن، لكن لما خالف الناس فيه عقبه بما ذكر.

وإما أن تكون الصفة غير ممكنة، كقوله:

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته *** لما رأيت عليها عقد مُنتطق^(٢)

وبعد عرض ما كتبه الشهاب الحلبي في هذا اللون البلاغي يمكننا القول بأن شهاب الدين الحلبي، هو أول من قسم حسن التعليل.

تاسعاً: حسن التعليل عند محمد بن علي الجرجاني (ت ٧٢٩هـ)

تناول محمد بن علي الجرجاني هذا اللون البلاغي تحت مسمى (التعليل) وقد سار على خطى الشهاب الحلبي، فعرفه تعريف الشهاب نفسه مع تغيير طفيف في عبارته، حيث عرفه

بقوله: " هو أن يذكر لوصف علة مناسبة، لا في نفس الأمر"^(٣)، وقسمه أربعة أقسام هي:

(١) حسن التوسل إلى صناعة التوسل . شهاب الدين أبي الثناء محمود بن سليمان الحلبي، ص: ٥٥ المطبعة الوهبية بمصر ١٣٩٨هـ.

(٢) حسن التوسل، ص: ٥٥.

(٣) الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة . محمد بن علي بن محمد الجرجاني، ص: ٢٥٥ . تحقيق: الدكتور عبد القادر حسين . مكتبة الآداب ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.

الأول: ما لا يظهر له في العادة علة.

الثاني: ما يظهر له علة غير المذكورة.

الثالث: أن يراد إثبات صفة ممكنة بعلّة غير معهودة.

الرابع: أن يراد إثبات صفة ممكنة بعلّة معهودة.

وهذه الأقسام هي الأقسام نفسها التي ذكرها الشهاب الحلبي مع تعديل في الصياغة، واستشهد بالشواهد التي ذكرها الشهاب الحلبي، مع زيادة يسيرة في الشواهد^(١).

عاشراً: حسن التعليل عند الخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ)

تناول الخطيب القزويني حسن التعليل في كتابه: "تلخيص المفتاح"، و"الإيضاح"، وقد جمع فيهما شتات الموضوع، فعرفه في التلخيص، ونقل التعريف نفسه في الإيضاح. وقسمه - في الكتابين - أربعة أقسام هي عين الأقسام التي ذكرها الشهاب الحلبي في كتابه "حسن التوسل"، وقد ذكر في التلخيص شاهداً واحداً لكل نوع، أما في الإيضاح، فقد توسع في شواهد القسم الأول والثاني من أقسام حسن التعليل^(٢).

وثمة ملحوظة وهي أن هدف الخطيب القزويني من تأليف كتاب "تلخيص المفتاح": تلخيص القسم الثالث من كتاب "مفتاح العلوم" للسكاكي (ت ٦٢٦هـ)، وقد أشار إلى ذلك في مقدمة الكتاب^(٣)، وعلى الرغم من ذلك لم يشير إلى السكاكي في مصطلح حسن التعليل - كما لم يُشر بدر الدين بن مالك إليه في كتابه المصباح - وذلك لأن السكاكي لم يذكر هذا اللون البديعي في كتابه، فقد ذكر عشرين لوئاً من المحسنات المعنوية، وذكر الخطيب في التلخيص ثلاثين لوئاً من ألوان البديع المعنوي، وقد زاد

(١) المرجع السابق، ص: ٢٥٥: ٢٥٧.

(٢) ينظر: تلخيص المفتاح - جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني ص: ٨٧، ٨٨. طبع في بيروت ١٣٠٢هـ، الإيضاح في علوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع) ص: ٢٧٧ وما بعدها.

(٣) ينظر: تلخيص المفتاح ص: ٢.

حسن التعليل - دراسة بلاغية تاريخية فنية

على هذه الثلاثين نوعاً آخر في الإيضاح لم يذكره السكاكي، وهو الاستطراد.

ومن خلال الشواهد التي ذكرها في حسن التعليل يظهرُ جلياً تأثيره في هذا الباب بما كتبه أبو هلال العسكري في "كتاب الصناعتين" والإمام عبد القاهر في "أسرار البلاغة"، وابن أبي الإصبع في "تحرير التحبير"، والشهاب الحلبي في "حسن التوسل"، وقد أحسن استخدام الكتب التي اطلع عليها وتأثر بها في علم البديع بصفة عامة، حيث يظهر في كتابيه (التلخيص - والإيضاح) إحكام الترتيب، ودقة التبويب، والاعتناء بالشواهد، لا سيما في كتاب "الإيضاح".

وقد سار شراح التلخيص على خطى القزويني، وكل من كتب في حسن التعليل من المتأخرين، والمعاصرين، ويكاد جهدهم ينحصر في جمع ما كتبه الخطيب، مع إضافة شواهد يدلون بها على جمال هذا اللون البديعي^(١).

ومن خلال التتبع التاريخي لتطور هذا المصطلح يمكننا أن نقول إن أوضح تعريف لهذا اللون البلاغي هو ما ذكره الخطيب القزويني في كتابه "الإيضاح"، حيث عرفه بقوله: "أن يدعى لوصف علة مناسبة له باعتبار لطيف"^(٢)، وقد أصبح هذا التعريف هو الأساس لمن جاء بعده من البلاغيين.

(١) ينظر على سبيل المثال: شروح التلخيص ص: ٣٧٣ وما بعدها . مؤسسة دار البيان العربي ، دار الهادي . بيروت . لبنان . طبعة رابعة ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م .

(٢) الإيضاح ص: ٢٧٧ .

أقسام حسن التعليل:

ذكرت أن الإمام عبد القاهر لم يحصر أقسام التخيلي المعلل الذي عرف عند البلاغيين المتأخرين بحسن التعليل، فهو يرى أنه "مفتن المذاهب، كثير المسالك، لا يكاد يحصر إلا تقريباً، ولا يحاط به تقسيماً وتبويباً"^(١).

أما البلاغيون المتأخرون فقد قسموا حسن التعليل أربعة أقسام هي:

- أن يكون التعليل لوصف ثابت لا تظهر له علة حقيقية أو له علة لا يسأل الناس عنها.
- أن يكون التعليل لوصف ثابت تظهر له علة حقيقية يتغاضى الشاعر عنها، ويثبت له علة أخرى.
- أن يكون التعليل لوصف غير ثابت، وهو ممكن، وليس مُحالاً.
- أن يكون التعليل لوصف غير ثابت وأريد إثباته، وهو غير ممكن لامتناع وقوعه^(٢).

ولعل الإمام عبد القاهر حين نفى أن يُحاط بأقسام حسن التعليل، أراد ذلك من حيث العلة المذكورة؛ لأن مناط الحسن في حسن التعليل ليس هو الصفة بل العلة المذكورة، "فالبلاغة لا تسأل عن جوهر العلة وغايتها، إنما تسأل عن التعليل، أي عن كيفية صوغ العلة، وأسلوب عرضها، وطريقة اكتشافها، وعن البراعة في تصوير العلة والمعلول في إطار من التناسب"^(٣).

شروط حسن التعليل:^(٤)

ذكر البلاغيون أنه لا بدّ أن تتوافر في "حسن التعليل" ثلاثة شروط، وإلا لما كان من محسنات الكلام.

(١) أسرار البلاغة ص: ٢٦٧..

(٢) الإيضاح ص: ٢٧٧ وما بعدها، البديع من المعاني والألفاظ، د/ عبد العظيم إبراهيم مجد المطعني، ص: ٤١. ط: مكتبة وهبة، علم البديع "دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع" للدكتور: بسيوني عبد الفتاح فيود، ص: ٢٤٦. مؤسسة المختار للنشر والتوزيع. الطبعة الرابعة ١٤٣٦هـ. ٢٠١٥م.

(٣) البديع تأصيلٌ وتجديد، د/ منير سلطان ص: ١٨٣. طبعة منشأة المعارف بالإسكندرية.

(٤) ينظر: الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإيجاز ١٣٨/٣. ١٣٩. والمطول على التلخيص لسعد الدين التفتازاني ص: ٤٣٦. مطبعة السعادة.

أولها: أن تكون العلة غير حقيقية، بحيث تحتاج إلى مزيد نظر وتأمل، كقول الشاعر
ما به قتل أعاديه ولكن *** يتقي إخلاف ما ترجو الذئاب
ثانيها: أن تكون على وجه لطيف مناسب للغرض المسوق له الكلام من مدح أو غيره، كما في المثال السابق.

ثالثها: أن يأتي التعليل صريحًا باللام كقول الشاعر:

سألت الأرض لِمَ كانت مصلى *** ولمَ كانت لنا طهراً وطيباً
فقال - غير ناطقة - لأبي *** حويت لكل إنسان حبيبا
أو غير صريح في اللفظ، وإنما يؤخذ من جهة السياق والنظم والمعنى، كقول الشاعر:

يا واهياً حسنت فينا إساءته *** نجى حذارك إنساني من الغرق
الملحق بحسن التعليل

بعض البلاغيين المتأخرين ألحقوا بحسن التعليل ما بُني على الشك، قال الشهاب الحلبي: "وألحق به ما بُني على الشك، كقول أبي تمام^(١):
ربى شفت ريح الصبا لرياضها *** إلى المزن حتى جادها وهو هامع
كأن السحاب الغرّ غيبن تحتها *** حبيباً فما ترقا لهن مدامع"^(٢)
"علل على سبيل الشك نزول المطر من السحاب بأنها غيبت حبيباً تحت تلك الربا، فهي تبكي عليه"^(٣)

وقال الخطيب القزويني: "ومما يلحق بالتعليل - وليس به؛ لبناء الأمر فيه على الشك - قول أبي تمام:
كأن السحاب الغرّ غيبن تحتها *** حبيباً فما ترقا لهن مدامع

(١) في ديوانه من قصيدة يمدح فيها قومه ٥٨٠/٤ .

(٢) حسن التوسل، ص: ٥٥.

(٣) مختصر العلامة سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح ٣٨٣/٤ (ضمن شروح التلخيص).

وقول أبي الطيب^(١):

رحل العزاء برحلتني، فكأنني *** أتبعته الأنفاس للتشييع
علة تصعيد الأنفاس في العادة هي التحسر والتأسف، لا ما جَوَّز أن
يكون إياه، والمعنى: رحل عني العزاء بارتحالي عنك، أي معه، أو بسببه،
فكأنه لما كان الصدر محل الصبر، وكانت الأنفاس تتصعد منه أيضًا صار
العزاء وتتفس الصعداء كأنهما نزيلان، فلما رحل ذلك كان حَقًّا على هذا أن
يشيعه؛ قضاءً لحق صاحبه^(٢).

فعلة إخراج هذين الشاهدين من حسن التعليل، وجعلهما من الملحق
به، هو بناء العلة فيهما على الشك، لا على اليقين، على اعتبار (كأن) تقييد
الشك، قال ابن يعقوب: "و(كأن) - في نحو هذا الكلام - يؤتى بها كثيرًا عند
قصد عدم التحقق من الخبر، كما تقول: كأنك تريد أن تقوم، عند عدم
جزمك بإرادته القيام"^(٣)

وأرى أن هذين الشاهدين من (حسن التعليل)، وأنه لا داعي لما أطلقوا
عليه: (الملحق بحسن التعليل)؛ وذلك لأمر:

الأول: أن هذين الشاهدين ذكرهما الإمام عبد القاهر في حديثه عن
التخييل المعلن، ولم نجد عنده ما يشير إلى أنهما ملحقان بحسن التعليل،
حيث ذكر قول أبي تمام ضمن الشواهد التي ساقها للنوع الأول الذي ذكره،
فقال: "ومما حقه أن يكون طرازًا في هذا النوع قول البحرني^(٤):

يتعثرن في النحور وفي الأو *** جُه سكرًا لما شربن الدماء
جعل فعل الطاعن بالرماح تعثرًا منها.. ثم طلب للتعثر علة....
وقول أبي تمام:

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري ٢/٢٤٩.

(٢) الإيضاح للخطيب القزويني، ص: ٣٨٢، ٣٨٣.

(٣) مواهب الفتح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي ٤/٣٨٣ (ضمن شرح التلخيص).

(٤) البيت في ديوانه من قصيدة يمدح بها أبا سعيد محمد بن يوسف النغري الطائي، ينظر: ديوان البحرني ١/١٨.

كأن السحاب الغرّ غيبن تحتها *** حبيباً فما ترقا لهن مدامع^(١)
وذكر قول المتنبي ضمن الشواهد التي ساقها لنوع آخر ذكره
وهو: "نفي علة مشهورة وادعاء أخرى"^(٢)، ومثاله:

ما به قتل أعاديته ولكن *** يتقي إخلاف ما ترجو الذئاب
وبعد أمثلة كثيرة ساقها لهذا النوع قال: "ومما يلحق بهذا الفصل قوله:

رحل العزاء برحلتني، فكأنني *** أتبعته الأنفاس للتشييع
وذلك أنه علل تصعد الأنفاس من صدره بهذه العلة الغريبة، وترك
ما هو المعلوم المشهور من السبب والعلة فيه، وهو التحسر والتأسف،
والمعنى: رحل عني العزاء بارتحالي عنكم، أي: عنده ومعاه أو به وبسببه،
فكأنه لما كان محل الصبر الصدر، وكانت الأنفاس تتصعد منه أيضا صار
العزاء وتنفس الصعداء كأنهما نزيلان ورفيقان، فلما رحل ذاك، كان حق هذا
أن يشيعه؛ قضاءً لحق الصحبة"^(٣).

فالمفهوم من كلام الإمام عبد القاهر أن المقصود بقوله: "ومما يلحق
بهذا الفصل"، أي: مما يلحق بهذا النوع الذي يتحدث عنه، وهو ما كان له
علة مشهورة تركها الشاعر وأتى بعلة أخرى.

الثاني: أن بهاء الدين السبكي لم يرتض قول الخطيب، وردّ عليه
فقال: "واعلم أن قول المصنف: وليس به؛ لبناء الأمر على الشك فيه نظر،
أما أولاً فلأنه ليس في الكلام شك، وأما ثانياً: فلأن (كأن) ليست للشك على
الصحيح، بل تُردُّ حيث وقعت إلى التشبيه"^(٤).

الثالث: أن المعول عليه في حسن التعليل هو (العلة)، وقد جاءت
العلة في الشاهدين غير حقيقية، وقائمة على التخيل، وعلى وجه لطيف

(١) أسرار البلاغة ص: ٢٨٩.

(٢) السابق، ص: ٢٩٦.

(٣) السابق، ص: ٢٩٨، ٢٩٩.

(٤) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح. بهاء الدين السبكي ٤/٣٨٣ (ضمن شروح التلخيص).

مناسب للغرض المقصود من الأبيات، فهي مطابقة لما اشترطه البلاغيون فيها حتى تكون من حسن التعليل.

وعليه: فلا داعي لكثرة التقسيمات، وإخراج ما هو من الأصل وجعله ملحاً به؛ لأن ذلك لا يفيد البلاغة في شيء!

فبييت أبي تمام:

كأن السحاب الغرّ غيبن تحتها *** حبيباً فما ترقا لهن مدامع
يمكن جعله من القسم الأول لحسن التعليل، وهو ما كان الوصف فيه ثابتاً وقصد بيان علتة؛ فنزول الغيث وصف ثابت لا تظهر له علة في العادة، أوجد له الشاعر علة تخيلية باعتبار لطيف هي: بكاء السحاب على حبيب غُيب تحت الربى.

وبيت المتنبي:

رجل العزاء برحلتني، فكأنني *** أتبعته الأنفاس للتشييع
يمكن جعله من القسم الثاني لحسن التعليل، وهو ما كان الوصف فيه ثابتاً وله علة مشهورة، لكن الشاعر يعدل عنها إلى علة أخرى، فقد علل المتنبي في البيت تصعد الأنفاس من صدره بهذه العلة الغريبة، وترك العلة المشهورة لتصعد الأنفاس وهي التحسر والتأسف.

المبحث الآخر

حسن التعليل "دراسة تحليلية فنية"

حسن التعليل من صور البديع التي تحمل ألوان البراعة في القول، والتفنن في الصنعة، وتدل دلالة واضحة على شدة التمرس باللغة، والبصر بدقائق المعاني ولطائفها؛ لاعتماده على التخيل" فوجه حسنه: إظهار ما ليس بواقع متخيلاً، كالصحيح الواقع"^(١)، يضاف إلى هذا ان ذكر الشيء معللاً أبلغ من ذكره بلا علة لوجهين:

أحدهما: أن العلة المنصوصة قاضية بعموم المعلول.

الثاني: أن النفس تنبعث إلى نقل الأحكام المعللة، بخلاف غيرها^(٢)، وهذا يعني أن إثبات الشيء معللاً أكد في النفس من إثباته من مجرداً عن التعليل كما قال العلوي رحمه الله^(٣).

وخلاصة القول: أن القيمة البلاغية لهذا اللون البديعي "تكمن في طرافته، وبعد مرماه، وما يسهم به من نصيب وافر في إثارة الخيال، وتوضيح المعنى المتخيل، بتقريبه من الحقيقة، وتقريبه في ذهن المتلقي، بتحسين الصورة القولية وجعلها مقبولة، وما كان كذلك إلا لأنه وثيق الصلة بالنفس الشاعرة، فمادته ومجاله - غالباً - الشعر"^(٤).

والشعر فن يعتمد على الخيال، ويرتبط بالوجدان ويؤثر في النفس أيما تأثير" فبالشعر تتكلم الطبيعة في النفس، وتتكلم النفس للحقيقة، وتأتي الحقيقة في أظرف أشكالها، وأجمل معارضها، أي في البيان الذي تصنعه هذه النفس الملهمة حين تتلقى النور من كل ما حولها وتعكسه في صناعة نورانية متموجة بالألوان في المعاني والكلمات والأنغام"^(٥).

(١) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة. عبد المتعال الصعيدي ٤/٤٤ ط: مكتبة الآداب.

(٢) البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ٣/٩١. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. مكتبة دار التراث.

(٣) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإيجاز ٣/١٣٨، ١٣٩.

(٤) من جماليات المعنى حسن التعليل د/ عيد محمد شيايك، ص: ١٢١. دار حراء بالقاهرة.

(٥) وحى القلم. مصطفى صادق الرافعي ٣/٢٢٢. المكتبة العصرية. صيدا. بيروت.

وفيما يلي تحليل بلاغي لبعض النماذج الشعرية أحاول من خلاله تجلية القيمة البلاغية لهذا اللون البديعي، وأركز فيه على العلة الخيالية، ومدى مناسبتها للغرض الذي جاءت من أجله، وما اعتمدت عليه من ألوان بلاغية أعانت على إثارة خيال المتلقي وإقناعه بالمعنى المتخيل وتقريره في ذهنه؛ فالعلة - كما مرّ - هي مناط الحسن في هذا الباب!

فمن النماذج الشعرية التي تبين القيمة البلاغية لحسن التعليل: قول الشاعر^(١):

بالحاکم العدل أضحى العدل معتلياً *** نجل العُلا وسليل السادة النُجبا
ما زُلزت مصرٌ من كيدٍ يُرادُ بها *** وإنما رقصت من عدله طرباً
الزلازل وسقوط الأمطار والكسوف والخسوف ونحو ذلك من الظواهر الطبيعية الكونية أوصاف ثابتة لا تظهر لها علة حقيقية، أو لا يسأل الناس عن علتها، إلا أن الشاعر - في البيت الثاني من هذين البيتين - أوجد لهذه الظاهرة الكونية - الزلازل - علة خيالية فيها من الطُرف والطرافة ما فيها؛ إذ جعل هذه الزلازل نتيجة طبيعية لفرح الأرض وطربها بعدل الممدوح، وهذا ادعاءً من الشاعر قائم على التخيل؛ ليصل إلى غرض مؤداه أن عدل ممدوحه عم الآفاق!

وقد صاغ الشاعر هذه العلة الخيالية في صورة بيانية رائعة اعتمد فيها على الاستعارة المكنية، حيث شبه الأرض بامرأة تتمايل فرحاً وطرباً بعدل الممدوح، وحذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الرقص، وإثبات الرقص للأرض استعارة تخيلية وهي قرينة المكنية، وبهذه الاستعارة تم للشاعر مراده؛ حيث جمع بين حسن التعليل وحسن التخيل في آن واحد، فالاستعارة صورت لنا الجماد في صورة متحركة نراها بأعيننا، فمن

(١) البيت نسبة السيوطي ل: صَنَاجَة الدوح، محمد بن القاسم بن عاصم شاعر الحاكم، وهو كذلك في شرح شواهد التلخيص. ينظر: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة. للحافظ: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي/١٥٦٢ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. طبعة أولى ١٣٨٧هـ. ١٩٦٧م، وشرح شواهد التلخيص المسمى: معاهد التنصيص. عبد الرحيم بن عبد الرحمن أحمد العباسي ٢٠/٢. المطبعة الهية المصرية ١٣١٦هـ.

خصائص الاستعارة - كما ذكر الإمام عبد القاهر - : " أنك ترى بها الجماد حياً ناطقاً، والأعجم فصيحاً، والأجسام الخرس مبينةً، والمعاني الخفية بادية جليلة"^(١)، ولك أن تتأمل المبالغة الطريفة في إسناد الرقص إلى عموم الأرض - مع أنه يقصد أرض مصر - فهو مجاز عقلي قَصَد به المبالغة، وكأن الأرض كلها ترقص طرباً لعدل الممدوح، لا أرض مصر وحدها!

ولك أن تتأمل أيضاً تناسب ألفاظ الشاعر في قوله: (زلزلت - رقصت) فكلمة رقصت بما فيها من الاهتزاز وسرعة الحركة، تعبر عن معنى الكلمة الأولى - زلزلت - أدق تعبير. وقد نزل الشاعر علته منزلة الأمر المعلوم الذي لا ينكره أحد حين صاغ عبارته بأسلوب القصر بإنما؛ لأن إنما" تجيء لخبر لا يجهله المخاطب، ولا يدفع صحته، أو لما يُنزل هذه المنزلة"^(٢) ومن جميل حسن التعليل قول ابن نباتة السعدي^(٣):

وكأنما لطم الصباح جبينه *** فاقصص منه فخاض في أحشائه

فبياض غرة الفرس أو قوائمه وصف ثابت لا علة له، إلا أن الشاعر أوجد له علة طريفة توقظ النفس وتحرك العقل، وتجلب للشعور ارتياحاً وانبساطاً، حيث صاغ علته في صورة معركة نشبت بين الصباح والفرس، بدأها الصباح حين لطم جبين الفرس؛ فابيضت غرته، لكن فرسه العنيد أراد أن يقتصص من الصباح؛ فطرحة أرضاً وخاض في أحشائه بقوائمه، فابيضت قوائمه كما ابيضت غرته، فالشاعر علل بياض غرة الفرس بلطم الصباح له، وعلل بياض قوائمه بخوض الفرس في أحشاء الصباح، فهي علة خيالية امتزج فيها التعليل بحسن التخيل الذي جاء أولاً معتمداً على التشبيه الصريح (وكأنما لطم الصباح جبينه)، وهو تشبيه يبين حال المشبه، وجاء

(١) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني ص: ٤٣.

(٢) دلائل الإعجاز للإمام أبي بكر عبد الرحمن بن محمد الجرجاني ص: ٣٣٠ تحقيق: محمود محمد شاكر. مكتبة الخانجي الخانجي بالقاهرة.

(٣) البيت في ديوانه من قصيدة يمدح بها سيف الدولة، وقد حملة على فرس أغرم محجل. ينظر: ديوان ابن نباتة السعدي ٢٧٣/١ - دراسة وتحقيق: عبد الأمير مهدي حبيب الطائي - منشورات وزارة الإعلام - الجمهورية العراقية ١٩٧٧م.

ثانيًا معتمدًا على الاستعارة التمثيلية التي صورت لنا معركة شرسة دارت بين الفرس وال صباح، استطاع الشاعر أن يجعلنا نشعر بها ونتفاعل معها، وكأنها واقعة أمام أعيننا، كما استطاع الشاعر ببراعته أن يصور لنا سرعة الأحداث؛ حين استخدم الفاء في قوله: (فاقتص منه فخاض في أحشائه)؛ فالفاء صورت لنا اقتصاص الفرس لنفسه من الصباح بحركة سريعة متتابعة، فاكتملت عناصر التخيل في الصورة، ونتج عنها علة طريفة ومناسبة رغم ما فيها من مبالغة.

ومنه قول أبي تمام^(١):

لا تنكري عطل الكريم * فالسيل حرب للمكان العالي**

فحرمان بعض الكرام من الغنى وصف ثابت لا يُعَلَّل، أو لا يسأل الناس عن علته، لكن الشاعر أراد أن يثبت له علة خيالية، فجرد من نفسه شخصًا يخاطبه، ويقول له: "ليس عجبًا أن يتعطل الكريم عن الغنى، فهكذا أصحاب القيم الرفيعة، ألا ترى أن السيل لا يأوي إلى الأماكن المرتفعة ولا يستقر بها، بل سرعان ما ينحدر عنها إلى الأماكن المنخفضة"^(٢)، فالشاعر علل حرمان الكريم من الغنى بعلة خيالية، هي: علو القدر ورفع الشأن، قياسًا على الأماكن المرتفعة التي لا يستقر السيل بها. وقد اعتمدت العلة على التشبيه التمثيلي الضمني؛ حيث شبه حاله بحال السيل المنحدر من علو، فالمكان العالي لا يستقر فيه الماء، لكنه ينفذ غيره، والغرض من هذا التشبيه بيان إمكان المشبه؛ لكونه أمرًا غريبًا مستبعدًا يمكن أن يُدعى امتناعه، فكان هذا التشبيه بمثابة الدليل على وقوعه دون اعتراض من أحد، فاجتمع للشاعر في بيته حسن التعليل مع حسن التخيل.

(١) البيت من قصيدة بمدح فيها الحسن بن رعاء. ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي ٧٧/٢.

(٢) البديع في ضوء أساليب القرآن للدكتور عبد الفتاح لاشين، ص: ١١٩، ١٢٠. طبعة دار الفكر العربي ١٤١٩هـ.

ومنه ما أنشده عبد الملك بن إدريس الحريري، وكان بين يدي المنصور بن عامر في ليلة يبدو فيها القمر تارة، ويختفي بالسحاب تارة، فأنشده:

أرى بدر السماء يلوح حيناً *** ويبدو ثم يلتحف السحابا
وذاك لأنه لما تبدى *** وأبصر وجهك استحيا وغابا^(١)

فبدو البدر ثم اختفاؤه وصف ثابت لا ينظر الناس إليه ولا يسألون عن علته، لكن الشاعر أوجد له علة خيالية مناسبة لغرضه، وهو إدخال السرور على المخاطب، والتلطف في الثناء عليه، وقد ساق تعليله من خلال استعارة مكنية، حيث شبه البدر بامرأة نظرت إلى وجه الممدوح، فاكتشفت أن جماله يفوق جمالها، فاستحيت وغابت عن أوجه الناظرين، وحذف الشاعر المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو الحياء الذي هو من أخص صفات المرأة. وإثبات الحياء للبدر هنا تخييل، وهو قرينة الاستعارة المكنية، هذا التخيل هو الذي أعطى للصورة لوناً من الطرافة، وجعل للتعليل حُسناً مقبولاً؛ لأن الشاعر رسم هذا المشهد بدقة متناهية، وبأسلوب طريف شيق، خلق الحياة على الجماد، وبث فيه الانفعالات الوجدانية حين أعطى للبدر صفة ليست له، وإنما هي للإنسان، ألا وهي الحياء.

ومن حسن التعليل القائم على العلة الطريفة قول الشاعر^(٢):

عاقبت عيني بالدمع والسهرة *** إذ غار قلبي عليك من بصري
واحتملت ذاك وهي رابحة *** فيك وفازت بلذة النظر

ففي البيت الأول من هذين البيتين وصف ثابت وهو دموع العين وسهرها، والعادة في دمع العين وسهرها أن يكون السبب فيه: إعراض الحبيب، أو اعتراض الرقيب، ونحو ذلك من الأسباب التي تعارف عليها الناس، لكن الشاعر ترك ذلك، وادّعى لهذا الوصف علة خيالية طريفة،

(١) ينظر: شرح شواهد التلخيص المسمى معاهد التنصيص ١٨/٢ المطبعة الهيئة المصرية ١٣١٦ هـ.

(٢) البيتان: نسبهما الإمام عبد القاهر إلى ابن المعتز، ولم أجدهما في ديوانه. ينظر أسرار البلاغة ص: ٢٩٩.

وهي: غيرة القلب منها على الحبيب، وإيثاره أن يتفرد برؤيته، وأنه - بطاعة القلب وامتنال رسمه - رام للعين عقوبة، فجعل ذلك أن أبكاها، ومنعها النوم^(١)، وهو تعليل قائم على المبالغة المقبولة لما فيه من حسن التخيل الناتج عن الاستعارة المكنية؛ حيث شبه القلب بإنسان يغار، وحذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهي الغيرة، وإثبات الغيرة للقلب تخييل. ويجوز أن يكون التخيل ناتجاً عن المجاز المرسل بعلاقة الجزئية، فالذي يغار هو جملة الإنسان، لكن الشاعر هنا أثبت الغيرة للقلب وحده؛ لأن القلب هو الجزء الذي له مزيد اختصاص بالمعنى المراد من الكل، فالمحب لا يحركه نحو محبوه إلا قلبه!

وقريب من هذا المعنى قول الشاعر^(٢):

قل لأحلى العباد شكلاً وقدًا *** أجد ذا الهجر أم ليس جدًا
ما بدأ كانت المنى حدثني *** لهف نفسي أراك قد خنت وداً
ما ترى في متيم بك صب *** خاضع لا يرى من الذل بداً
إن زنت عينه بغيرك فاضرب *** لها بطول السهاد والدمع حداً

فالشاعر في هذه الأبيات تغاضى عن العلة الحقيقية للسهاد ودمع العين، وجاء بعلّة خيالية طريفة وهي العقوبة كما فعل في الشاهد الأول مع اختلاف سبب العقوبة في الشاهدين، فسبب العقوبة هناك: غيرة القلب من العين، أما سبب العقوبة هنا فهي نظر العين إلى غير الحبيب، والذي عبر عنه الشاعر بقوله: (زنت عينه بغيرك)، ولفظة (زنت) أضفت على الكلام نوعاً من المبالغة سوّغ قبولها إحكام صنعة الشاعر بعدها؛ إذ لولاها ما توصل إلى إقامة الحد على العين، كذلك يحسنها ورود الكلمة في الحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي صلى

(١) أسرار البلاغة ص: ٢٩٩.

(٢) نسب الإمام عبد القاهر هذه الأبيات إلى ابن المعتز، ولم أجد لها في ديوانه. ينظر: أسرار البلاغة، ص: ٣٠٠.

حسن التعليل - دراسة بلاغية تاريخية فنية

الله عليه وسلم: "إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة؛ فزنا النظر العين، وزنا اللسان المنطق، والنفس تمني وتشتهي، والفرج يصدق ذلك ويكذبه"^(١).

ولو تأملنا حسن التعليل في الشاهدين لوجدنا تفوق الشاهد الأول على الشاهد الثاني، وقد علل الإمام عبد القاهر لذلك، فقال: "ولا شبهة في قصور الثاني عن الأول، وأن للأول عليه فضلاً كبيراً؛ وذلك بأن جعل بعضه يغار من بعض، وجعل الخصومة في الحبيب بين عينيه وقلبه - وهو تمام الظرف والالطف - أما الغيرة في الثاني فعلى ما يكون أبداً"^(٢).

ومن حسن التعليل القائم على التشبيه الضمني قول ابن الرومي^(٣):

قالوا اشتكت عينه، فقلت لهم *** من كثرة القتل مسّها الوصبُ

حُمُرُها من دماءٍ مَن قَتَلت *** والدم في النصل شاهد عجب

فنحن نعلم أن العين تشتكي الحمرة بسبب الرمد أو لمرضٍ يصيبها من أمراض العيون، لكن ابن الرومي عدل عن هذه العلة الظاهرة التي يعرفها الناس، وأتى بعلّة خيالية باعتبار لطيف، أثبت فيها أن حمرة العين سببها كثرة من قتلت من المفتونين بسحر جمالها!

وكان ابن الرومي استشعر غرابة في هذا التعليل، فبناه على التشبيه الضمني - في البيت الثاني -؛ حيث شبّه حمرة عين المرأة - بسبب قتلها لمن قُتِنَ بجمالها - بحمرة الدم على نصل السيف - بسبب كثرة من قتل من الأعداء - وغرضه من هذا التشبيه بيان إمكان المشبه، فكما يكون الدم على نصل السيف دليلاً على كثرة القتل، فكذلك حمرة العين دليل على كثرة من

(١) الجامع الصحيح للبخاري. كتاب القدر. باب: (وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون) حديث رقم: (٦٦١٢) ٢١٢/٤.

(٢) أسرار البلاغة ص: ٣٠٠.

(٣) البيتان في ديوانه، ينظر: ديوان ابن الرومي ١/٢٤١. شرح الأستاذ: أحمد حسن بسج. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. الطبعة الثالثة ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.

قتلت هذه المرأة سحرها وجمالها، وهذا يشير إلى أن ثمة علاقة تربط بين حسن التعليل والتشبيه الضمني؛ فحسن التعليل قائم على التخيل، أي: التماس علة خيالية" يثبت بها الشاعر أمرًا غير ثابت، ويدعي بها دعوى لا طريق إلى تحصيلها، ويقول بها قولًا يخدع فيه نفسه، ويربها ما لا ترى"^(١)، والتشبيه الضمني نوع من التفنن في أساليب التعبير، والنزوع إلى الابتكار والتجديد، وإقامة البرهان على الحكم المراد إثباته إلى المشبه، يلجأ إليه الشاعر أو الأديب؛ "ليدلل به على أن الأمر الذي أسند إلى المشبه ممكن ومعقول"^(٢).

فالشاعر حين يقصد إلى معنى من المعاني يراه مستبعدًا أو غريبًا - ويحاول أن يقربه إلى الأذهان، ويؤيده بدليل - يشبهه بشيء تقره العقول ولا تنكره، هذا المشبه به الذي يأتي به الشاعر لإزالة الغرابة عن المعنى المنكر، ولتقريبه إلى العقول، هو العلة الخيالية المشتركة في حسن التعليل. ومنه قول المتنبي^(٣):

فإن تفق الأنام وأنت منهم * فإن المسك بعض دم الغزال**
فالمتنبي في هذا البيت يدعي تفوق سيف الدولة على سائر الأنام مع أنه منهم، ولا يشك أحد في أن هذا المعنى غريب ومستبعد، فهو وصف غير ثابت تنكره العقول؛ لاستبعاد أن يخرج الشيء عن أصله، إلا أن الشاعر أوجد لذلك علة خيالية طريفة تبين إمكانه، فشبّهه بشيء تقره العقول ولا تنكره، وهو كون المسك بعض دم الغزال، فدم الغزال دم كسائر الدماء، لكنه تفوق على سائر الدماء، لفضيلة فيه ليست في غيره، فهو بهذا التشبيه الضمني يعلل لدعواه المستبعدة أو المنكرة، وكأنه يريد أن يقول: إذا جاز أن

(١) أسرار البلاغة ص: ٢٧٥.

(٢) البيان في ضوء أساليب القرآن الكريم. الدكتور عبد الفتاح لاشين، ص: ١٠٣. طبعة دار الفكر العربي.

(٣) البيت في ديوان المتنبي، من قصيدة يرثي فيها والده سيف الدولة، ينظر: ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري ٢٠/٣.

يفوق الشيء جنسه لفضيلة فيه وليست في غيره، فلا عجب أن يفوق الممدوح جنسه؛ لما فيه من حميد الخلال، وجميل الصفات، وهو تعليل يمتزج فيه حسن التعليل بالتشبيه الضمني، بالإضافة إلى الأسلوب المؤكد الذي صاغ به تعليله، كل ذلك لإقناع القارئ بأن المعنى الذي أثبتته لسيف الدولة - حتى وإن كان غريباً، أو مستبعداً - من الأمور الممكنة التي لا ينكرها أحد، وهو بذلك يكشف عن لطف المعنى، ويظهر حسن المدح بتعظيم الممدوح وإعلاء شأنه.

ومن نماذج حسن التعليل المشهورة التي تظهر القيمة البلاغية لهذا اللون قول ابن رشيق القيرواني:

سَأَلْتُ الْأَرْضَ لِمَ كَانَتْ مَصَلَى *** وَلِمَ كَانَتْ لَنَا طَهْرًا وَطِيْبًا
فَقَالَتْ - غَيْرَ نَاطِقَةٍ - لِأَنِّي *** حَوِيْتُ لِكُلِّ إِنْسَانٍ حَبِيْبًا

فكون الأرض جعلت مصلى، وطهراً وطيباً، هذا وصف ثابت له علة معروفة بين الناس، وهي علة شرعية مستمدة من الحديث الذي رواه البخاري عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: "أُعْطِيْتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيَصِلْ، وَأُحِلَّتْ لِي الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيْتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعثَتْ إِلَى النَّاسِ عَامَةً"^(١)، لكن الشاعر أتى بعلّة خيالية لطيفة، وهي أنها تحوي في باطنها لكل إنسان منا حبيباً، فكأن الإنسان حين يلامس الأرض في صلاته أو في تيممه يلامس حبيبه ويأنس بالقرب منه!

وقد بنى الشاعر هذا التعليل الطريف على أمرين، أولهما: الاستعارة التي أكسبت الجماد صفة من صفات الكائن الحي، وثانيهما: الكناية في

(١) الجامع الصحيح للبخاري ١٢٦/١. كتاب التيمم. حديث رقم: (٣٣٥).

قوله: (حويثُ لكلِ إنسانِ حبيباً) فهو لا يقصد بالجملة معناها الحقيقي، وإنما يقصد لازم المعنى، وهو القرب من الأحبة والأنس بهم، وهو - دون شك - تعليل مناسب، صاغه الشاعر صياغة فنية دون أن يسرف في العلة، أو أن يتجرأ على ثوابت الدين، كما تجرأ ابن هانئ الأندلسي حين قال:

ولو لم تصافح رجلها موضع الثرى *** لما كنتُ أدري علةً للتيمم

حيث أسرف في التماس علة الخيالية حين جعل مصافحة رجلها للثرى علة للتيمم؛ ولذلك علق عليه ابن أبي الإصبع بقوله: "فَلَحَى^(١) الله غُلُوهُ كيف يقول: إنه لم يدرِ علة التيمم إلا بما ذكر؟"^(٢) واستحسن بدر الدين بن مالك قول ابن رشيقي وعلق عليه بقوله: "وقد أحسن في الاستخراج لكون الأرض مسجداً وطهوراً، فأتى بعلّة مناسبة لا حرج عليه في ذكرها على لسانه، فكيف وقد ذكرها على لسان الأرض في جواب سؤاله؟"^(٣)، كما استحسنه العلوي فقال: "ولقد أحسن في الاستخراج، وألطف في التعليل"^(٤).

وهذا يعني أن المعنى الواحد قد يتناوله غير شاعر، ويعلل له بعلّة خيالية - حسب مهارته - إلا أنهم يختلفون في التماس العلة المناسبة، فيأتي بعضهم بعلّة مستطرفة مقبولة، ويقع بعضهم في الغلو المردود، ويخرج عن جادة الصواب كما فعل ابن هانئ!

ومن جميل حسن التعليل قول عنتره بن شداد^(٥):

ولقد ذكرك والرماح نواهل *** مني وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها *** لمعت كبارقِ ثغرك المتبسم

(١) لحي الله فلاناً: قيحه ولعنه، يُنظر: لسان العرب ١٢/٢٥٦ (مرجع سابق).

(٢) تحرير التعبير، ص: ٣٠٩.

(٣) المصباح في المعاني والبيان والبدیع، ص: ٢٤٢.

(٤) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإيجاز. يحيى بن حمزة العلوي ٣/١٣٩. مطبعة المفتطف بمصر ١٩١٤.١٣٣٣م.

(٥) شرح ديوان عنتره. الخطيب التبريزي ص: ١٩١.

فتقبيل السيوف وصف غير ثابت، لكنه ممكن، ولما كان فيه غرابة احتاج الشاعر إلى ذكر علة له تقريبه من الإمكان، فادعى علة خيالية فيها طرفاة مناسبة لغرضه وهو مدح محبوبته، واستعان في هذه العلة بالتشبيه الصريح؛ حيث شبه لمعان السيوف بلمعان ثغر صاحبتة حين تتبسم وتتبدى أسنانها، والتشبيه هنا تشبيه مقلوب، جعل الفرع أصلاً والأصل فرعاً؛ حيث ادعى الشاعر أن بريق ثغر محبوبته أقوى وأتم في وجه الشبه من بريق ولمعان السيوف، وغرضه من ذلك المبالغة، فالتشبيه المقلوب يؤتى به حين تقصد المبالغة في الكلام.

والبيتان - من وجهة نظري - يعكسان جمال عشق عنتره من خلال لوحة فنية ذات مشاهد حية نابضة بالحياة والحركة، فالرماح نواهل، والسيوف لوامع، والدماء تقطر دماً، والثغر مبتسم لامع في خياله، كل ذلك شكل لنا لوحة فنية تكتمل فيها عناصر التخيل التي بنى عليها علته في تقبيل السيوف، وجعل غير الممكن ممكناً. ومنه قول الشاعر:

لو لم تكن نية الجوزاءِ خدمتهُ *** لما رأيت عليها عقدَ مُنتطِقِ^(١)
فإن نية الجوزاء خدمة الممدوح وصف غير ثابت، ينكره العقل، وهو غير ممكن، لكن الشاعر أراد إثباته فالتمس له علة خيالية، وهي أن الجوزاء - على ارتفاعها - لها نية وعزم على خدمة الممدوح، حيث انتطقت كخدم الملوك وسادة القوم، فانتطاقها علة لخدمة الممدوح، وهي علة مناسبة باعتبار طرفاتها، والمبالغة فيها مقبولة؛ لارتباطها بالتخيل الحسن الناشئ عن الاستعارة المكنية، حيث شبه الشاعر انتطاق الجوزاء - بالكواكب حولها - استعداداً لخدمة الممدوح، بالجارية الذي انتطقت استعداداً لخدمة سيدها،

(١) معنى بيت فارسي ذكره الإمام عبد القاهر في أسرار البلاغة ص: ٢٧٧. والخطيب القزويني ص: ٢٨٠. والإشارات والتنبهات ص: ٢٥٧.

وحذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو الانتطاق، أي: شد النطاق حول الوسط، وإثبات الانتطاق للجوزاء استعارة تخيلية، وهي قرينة الاستعارة المكنية، فهو تعليل حسنٌ كشف به الشاعر عن لطافة المعنى، وحسن المدح، واستطاع من خلاله أن يجعل غير الثابت ثابتًا، وغير الممكن ممكنًا.

ومن حسن التعليل قول ابن الرومي في وصف الخيري^(١):

خَيْرِيَّ وَرَدَ أَتَاكَ فِي طَبَقٍ *** قَدْ مَلَأَ الْخَافِقِينَ^(٢) مِنْ عِبْقِهِ
قَدْ خَلَعَ الْعَاشِقُونَ مَا صَنَعَ الْهَجْرَ *** الْهَجْرَ بِأَلْوَانِهِمْ عَلَى وَرْقِهِ

فتأثير الهجر على العشاق وصف ثابت ممكن، أما تأثيره على النبات فهو وصف غير ثابت وغير ممكن؛ لذلك علله الشاعر بتأثره بما فعل الهجر بالعاشقين من صفرة ألوانهم فكأن الصفرة انتقلت من وجوههم إليه، وهو تعليل حسن، فيه طرافة ومبالغة مقبولة، لاعتماده على التخييل؛ حيث اعتمد تعليل الشاعر على كناية لطيفة صورت لنا هذا النوع من الورد، وقد اعتراه الهمُّ، فتحول لونه من الخضرة إلى الصفرة، لتأثره بما أصاب العاشقين من الهجر، فمن سمات الكناية أنها تعطينا المعنى الحقيقي مصحوبًا بالدليل، ومقرونًا بالبرهان، كما أنها تبرز المعنى المعقول في صورة محسوسة، وهذا أوقع في النفوس، وأدعى إلى القبول؛ لأن النفس تأنس بالمحسوس.

وقد زاد من حسن التعليل في البيت: أن الشاعر ضمن الوصف فعل الهجر بالعاشقين، وما صنعه بهم من صفرة في الوجه، وتغير في اللون،

(١) استشهد البلاغيون بالبيت الثاني من هذين البيتين في باب الإدماج، ونسوا البيت لعبد الله ابن المعتز، والبيت غير موجود في ديوانه، وممن استشهد به: محمد بن علي الجرجاني في الإشارات والتنبيهات ص: ٢٥٨، والخطيب القزويني في الإيضاح ص: ٢٨٣، قال الشيخ عبد المتعال الصعيدي: وقيل: إن البيت لعلي بن محمد التغلبي - بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة ٥٣/٤. مكتبة الآداب، والبيتان لابن الرومي في ديوانه من بحر المنسرح في وصف الورد ٥٠٥/٢، والخيري: ورد أصفر

(٢) الخافقان: المشرق والمغرب. لسان العرب ١٥٩/٤.

حسن التعليل - دراسة بلاغية تاريخية فنية

وهو ما يعرف عند البلاغيين بالإدماج^(١)، وبهذه الصور البلاغية استطاع الشاعر أن يقنعنا بثبوت هذا الوصف، وإمكان تحققه، على الرغم من عدم ثبوته وإمكانه في الواقع.

ومن خلال ما سبق يتبين لنا أن حسن التعليل لم يستعن به الشعراء لمجرد الزينة وتحسين الكلام، وإنما كان له دوره في إبراز المعنى وتجليته. ويشترك معه في هذه الصفة، كل المحسنات البديعية (لفظية ومعنوية)؛ فالمحسنات ليست مجرد ألفاظ عقيمة يلجأ إليها الأديب ليزين بها كلامه، وإنما هي ألوان بلاغية لها قيمتها إذا أحسن استخدامها، وأتى بها لتؤدي دوراً في إفادة المعنى، فيزداد الكلام بها شرفاً وفضيلة.

(١) الإدماج هو: أن يُضمَّن كلامٌ سيق لمعنى معنى آخر. ينظر الإيضاح للخطيب القزويني، ص: ٢٨٣.

الخاتمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على خاتم رسل الله سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فهذه دراسة تاريخية فنية لمحسن بديعي يعد من أفضل المحسنات المعنوية؛ لما له من دور بالغ في إيقاظ خيال القارئ، وإثارة وجدانه، هو (حسن التعليل).

وقد جاءت الدراسة في مقدمة ومبحثين وخاتمة، ويمكنني أن أخص ما أثمرت عنه من نتائج فيما يلي:

- حسن التعليل كان موجودًا في إبداع الشعراء قبل وجوده كمصطلح بلاغي منذ العصر الجاهلي.
- أول من أشار إلى مصطلح حسن التعليل هو أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) في "كتاب الصناعتين"، ودرسه بسمى "الاستشهاد والاحتجاج".
- أطلق ابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦هـ) على هذا اللون "الاستدلال بالتعليل"، وكان مقصده من ذلك تقديم العلة التي يُستدلُّ بها على إثبات معنى من المعاني، سواء أكانت العلة حقيقية أم خيالية، تطابق الواقع أو لا تطابقه.
- الإمام عبد القاهر هو أول من وضع البذور الأولى لهذا اللون البلاغي، وفتح باب دراسته لمن أتى بعده من البلاغيين؛ ووضع له الأسس والقواعد التي يقوم عليها، ووضح المقصود بالعلة المتخيلة فيه، لكنه أطلق عليه: (التخييلي المعلل).
- الإمام عبد القاهر الجرجاني لم يستشهد (ت ٤٧١هـ) لهذا اللون البلاغي بآية واحدة من القرآن الكريم، ولا بحديث نبوي، ولعل السبب في ذلك هو

- أنه كان يتحدث عن التخيل القائم على ادعاء العلة واختلاقها، وهذا لا وجود له في كتاب الله ﷻ، ولا في كلام رسول الله ﷺ.
- رشيد الدين الوطواط (٥٧٣هـ) يعدُّ أول من أطلق مصطلح (حسن التعليل) على هذا اللون البلاغي، وأول من عرفه بتعريف قريب من التعريف المصطلح عليه عند البلاغيين، على الرغم من أنه لم يذكر له إلا شاهدًا واحدًا من الشعر العربي.
 - تعريف بدر الدين ابن مالك (٦٨٦هـ) للتعليل - يعدُّ خطوة جديدة من خطوات تطور مصطلح حسن التعليل، وإضافة جديدة أنارت الطريق لمن جاء بعده من البلاغيين، على الرغم من أنه لم يصرح بمصطلح (حسن التعليل)، وإنما عنون له في كتابه بـ(التعليل).
 - أول من قسم "حسن التعليل" هو الشهاب الحلبي (٧٢٥هـ) في كتابه (حسن التوصل إلى صناعة الترسيل).
 - أخذ هذا اللون البديعي صورته النهائية على يد الخطيب القزويني (٧٣٩هـ)، وقد سار سزّاح التلخيص على خطاه، وكذلك أصحاب البديعيات، وكل من كتب في حسن التعليل من المتأخرين والمعاصرين.
 - بعض البلاغيين المتأخرين ألحقوا بحسن التعليل ما بني على الشك، وأطلقوا عليه: (الملحق بحسن التعليل)، وقد ناقشت هذه المسألة، وانتهيت إلى أنه لا داعي لكثرة التقسيمات، وإخراج ما هو من الأصل وجعله ملحقاتاً به؛ لأن كثرة التقسيمات لا تفيد البلاغة في شيء، وأن ما ذكروه من شواهد لهذا القسم يمكن عدها من أقسام حسن التعليل التي استقر عليها البلاغيون.
 - تبين من خلال الدراسة أن العلة هي مناط الحسن في هذا الباب، وقد اشترط البلاغيون أن تكون خيالية تعتمد على الطرافة، وأن تكون مناسبة للغرض الذي سيقى من أجله.

- من خلال تحليل النماذج الشعرية لأقسام حسن التعليل تبين أن العلة التي يأتي بها الشعراء تعتمد على كثير من الألوان البلاغية، كان أبرزها: المجاز المرسل، والاستعارة المكنية، والتشبيه (التمثيلي، والصريح، والضمني)، والكناية، وأسلوب القصر بطريق "إنما"، وغير ذلك من الأساليب التي تعين على إثارة خيال المتلقي أو إقناعه بالمعنى المتخيل، وتقريره في ذهنه، وادعاء أنه واقع لا يمكن إنكاره.
- حسن التعليل لم يكن لمجرد الزينة وتحسين الكلام، وإنما كان له دوره في إبراز المعنى وتجليته.

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفُزْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾^(١)

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

المصادر والمراجع

- أسرار البلاغة للإمام أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني - تحقيق: محمود محمد شاكر - دار المدني بجدة.
- الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة - محمد بن علي بن محمد الجرجاني - تحقيق: الدكتور عبد القادر حسين - مكتبة الآداب ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.
- الإيضاح في علوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع) للخطيب القزويني - دار الكتب العلمية بيروت - لبنان - طبعة أولى ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.
- البديع تأصيلٌ وتجديد، د/ منير سلطان - طبعة منشأة المعارف بالإسكندرية.
- البديع في ضوء أساليب القرآن للدكتور عبد الفتاح لاشين - طبعة دار الفكر العربي ١٤١٩هـ ١٩٩٩م.
- بديع القرآن لابن أبي الإصبع المصري - تحقيق: حفني محمد شرف - نهضة مصر للطباعة والنشر.
- البديع من المعاني والألفاظ، د/ عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني - ط: مكتبة وهبة.
- البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي - تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم - مكتبة دار التراث.
- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة - عبد المتعال الصعيدي - ط: مكتبة الآداب.
- البلاغة تطور وتاريخ - الدكتور شوقي ضيف - طبعة دار المعارف - طبعة تاسعة.
- البيان في ضوء أساليب القرآن الكريم - الدكتور عبد الفتاح لاشين - طبعة دار الفكر العربي.
- تحرير التعبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لابن أبي الإصبع المصري - تحقيق: الدكتور حفني محمد شرف - المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

- تلخيص المفتاح - جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني - طبع في بيروت ١٣٠٢هـ
- الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري - تحقيق: محب الدين الخطيب - المكتبة السلفية بالقاهرة - طبعة أولى ١٤٠٠هـ .
- حدائق السحر في دقائق الشعر - رشيد الدين محمد العمري وطواط، - ترجمه من الفارسية إلى العربية: إبراهيم أمين الشواربي - طبعة المركز القومي للترجمة - طبعة ثانية ٢٠٠٩م.
- حسن التعليل في البلاغة العربية - حسن سليم طنطاوي - طبعة أولى - مطبعة صادق سلامة بالمنيا.
- حسن التوسل إلى صناعة الترسل - شهاب الدين أبي التناء محمود بن سليمان الحلبي - المطبعة الوهبية بمصر ١٣٩٨هـ .
- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، للحافظ: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي - تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم - طبعة أولى ١٣٨٧هـ ١٩٦٧م.
- دلائل الإعجاز للإمام أبي بكر عبد الرحمن بن محمد الجرجاني - تحقيق: محمود محمد شاكر - مكتبة الخانجي بالقاهرة.
- ديوان ابن الرومي - شرح الأستاذ: أحمد حسن بسج - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الثالثة ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.
- ديوان البحتري - تحقيق: حسن كامل الصيرفي - طبعة ثالثة - دار المعارف.
- ديوان ابن نباتة السعدي - دراسة وتحقيق: عبد الأمير مهدي حبيب الطائي - منشورات وزارة الإعلام - الجمهورية العراقية ١٩٧٧م.
- ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي - تحقيق: محمد عبده عزام - طبعة رابعة - دار المعارف.
- ديوان أبي الحسن علي بن محمد التهامي - تحقيق: الدكتور محمد بن عبد الرحمن الربيع - مكتبة المعارف - الرياض - طبعة أولى ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

حسن التعليل - دراسة بلاغية تاريخية فنية

- ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري المسمى بالتبيان في شرح الديوان - دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت - لبنان.
- ديوان امرئ القيس - تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم - طبعة دار المعارف.
- ديوان المعاني للإمام اللغوي الأديب أبي هلال العسكري - شرحه: أحمد حسن بسج - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - طبعة أولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
- ديوان النابغة الذبياني - تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ،، طبعة دار المعارف.
- سر الفصاحة لأبي محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي - طبعة دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - طبعة أولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- شرح ديوان صريع الغواني - مسلم بن الوليد الأنصاري - تحقيق الدكتور سامي الدهان - طبعة الثالثة - دار المعارف.
- شرح ديوان عنتره - الخطيب التبريزي ، تقديم: مجيد طراد - دار الكتاب العربي - بيروت - طبعة أولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- شرح شواهد التلخيص المسمى: معاهد التنصيص - عبد الرحيم بن عبد الرحمن أحمد العباسي - المطبعة البهية المصرية ١٣١٦هـ .
- الصبغ البديعي في اللغة العربية - الدكتور أحمد إبراهيم موسى - دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م.
- الطرز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإيجاز - يحيى بن حمزة العلوي - مطبعة المقتطف بمصر ١٣٣٣هـ - ١٩١٤م.
- علم البديع "دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع" للدكتور: بسيوني عبد الفتاح فيود- مؤسسة المختار للنشر والتوزيع - الطبعة الرابعة ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.
- علوم البلاغة عند العرب والفرس (دراسة مقارنة) للدكتور : إحسان صادق سعيد - نشر المستشارية الثقافية الإيرانية - دمشق - طبعة أولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

- غصن البان المورِّق بمحسنات البيان، تأليف: محمد صديق خان القنّوجي -
طبعة دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - طبعة أولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.
- كتاب الصناعتين " الكتابة والشعر " - أبي هلال الحسن بن عبد الله بن
سهل العسكري - تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم - دار إحياء
الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي طبعة أولى ١٣٧١هـ ١٩٥٢م.
- لسان العرب للإمام العلامة ابن منظور - تصحيح: أمين محمد
عبد الوهاب، ومحمد الصادق العبيدي طبعة دار إحياء التراث العربي - بيروت -
لبنان - طبعة الثالثة ١٤١٩هـ ١٩٩٩م.
- المصباح في المعاني والبيان والبديع - بدر الدين بن مالك - تحقيق:
دكتور حسني عبد الجليل يوسف - مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز.
- معجم الأدياء - ياقوت الحموي - تحقيق: إحسان عباس - طبعة دار
الغرب الإسلامي - بيروت ١٩٩٣م.
- من جماليات المعنى "حسن التعليل" د/ عيد محمد شبايك - دار حراء
بالقاهرة.
- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للإمام فخر الدين محمد بن عمر بن
حسين الرازي - تحقيق: الدكتور نصر الله حاجي - دار صادر - بيروت - طبعة
أولى ١٤٢٤هـ ٢٠٠٤م.
- وحي القلم - مصطفى صادق الرافعي - المكتبة العصرية - صيدا -
بيروت.
- الوساطة بين المنتبي وخصومه للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني -
تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي - مطبعة عيسى البابي
الحلبي.